

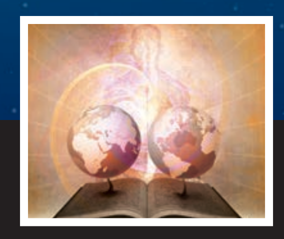
العدد: ٣٢ / السنة الثامنة / (سبتمبر - أكتوبر) ٢٠١٢
مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل شهرين من إسطنبول



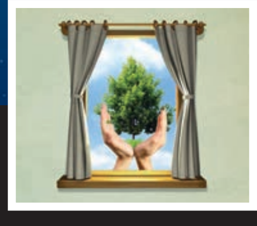
الأرض والحمائم

الأرض نحو السلام تسير،
وجبال الجليد القديمة واحدًا تلو الآخر تذوب،
والأحداث تحمل إلينا بشارات الأمل،
والحمائم ترفرف سعادة ألا ترى!

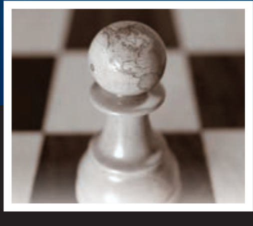
* * *



النفوس النافعة أو مجتمع الضمير



كيف يصوغ الإسلام الإنسان؟



دور المجتمعات المحلية في نهضة الأمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الافتتاحية



العدد: ٣٢
السنة الثامنة
(سبتمبر – أكتوبر) ٢٠١٢

الفطرة المدمرة

في مقاله لهذا العدد من "حراء" يشير الأستاذ "فتح الله كولن" إلى خاصية "الإثنينية" في طبيعة "النفس البشرية"، فقد فطرت هذا النفس على الجمع بين الشيء ونقيضه، بين الخير ونقيضه، والحق ونقيضه، والعدل ونقيضه، والجمال ونقيضه... والصراع بين هذه الأضداد قائم ودائر، وقد يفضي في خاتمة الصراع إلى انتصار أحد النقيضين على الآخر، ولما كانت "الفطرة" لها في سحيق الروح مكانة عظيمة، تؤثر فيها وتتأثر بها، تعطيها وتأخذ منها، لذا فأيُّ استلاب أو طمس أو مسخ أو تخريب للفطرة، يؤثر في الروح، ويضعف قدرتها على إحداث التغيير المطلوب في الفرد والمجتمع. فانجذاب الأرواح إلى معسكر الخير أو معسكر الشر، هو نتيجة ما يؤول إليه الصراع بين الأضداد، فإن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر، وهذا هو الذي يميز الروح الطيبة عن الروح الخبيثة.

ومسألة أخرى هي الأعظم من كل المسائل، ألا وهي مآل كل من الروحين ومصيرهما الأخروي. فالفطرة إذن إما أن تكون عامل بناء وإعمار في الدنيا وسعادة في الآخرة، أو تكون عامل تدمير وتخريب في الدنيا وشقاء في الآخرة.

أما مقال "رحلة في مقامات الوصال" للدكتور "الحسن الغشتول" فهو قطعة أدبية وفنية رائعة، يتحدث من خلالها عن رحلته إلى الأماكن المقدسة في "مكة المكرمة" و"المدينة المنورة"، ويقف عند غار "حراء" في جَيَشان فكري وروحي يدل على عمق هذا المكان المبارك في ذاكرته الدينية، وعمق ما يستثيره من ذكريات حبيبة عن نبي "الغار" ﷺ.

والدكتور "عمار جيدل" يتحفنا بمقال قيم عن المفكر الداعية محمد البشير الإبراهيمي، وعن فقه بعث الفاعلية الفكرية والروحية في كتابات هذا المفكر العملاق.

وعن ابن زهر، أحد أعلام رجال الطب في الحضارة الإسلامية وعن أبحاثه القيمة ودراساته في علم الأورام، سبقه في ذلك نجده في قلم الدكتور "بركات محمد مراد". وعن مرض "الاكتئاب" مرض العصر وطرق التعافي منه، تحدثنا "سعاد الولايتي" عن خبرتها بهذا الخصوص في مقالها الطبي "إضاءات للتعافي من الاكتئاب".

والدكتور "محمد جكيب" يحدثنا في مقاله القيم عن سلطة الكلمة وقوتها، وعن الأدب في ظل البيان، فيبدع أيما إبداع فيقول: "إن مادة الأدب هي اللغة بكلماتها وآفاقها الدلالية وصورها الفنية البلاغية، لكن الغذاء الذي يغذيها يقطف من عالم المشاعر والوجدان والأحاسيس ومن كل جميل".

ونود التنويه بمقال الدكتور حامد إبراهيم الموصلي "التنمية الذاتية" وعلاقة ذلك كله بنهضة الأمة، فالجهد الذاتي، أحد أهم أسباب النهوض للأفراد والأمم، لأن تثوير الطاقات الذاتية الأصيلة هو القاعدة الأساس في أي استنهاض أو نهضة.




المحتويات


كيف يصوغ الإسلام الإنسان؟
أسس بعث الفعالية
محمد البشير الإبراهيمي
التنمية الذاتية
ودور المجتمعات المحلية في نهضة الأمة
سلطة الكلمة وقوتها -٢
الأدب في ظل البيان


حراء
www.hiramagazine.com



فتح الله كولن

النفوس النافعة أو مجتمع الضمير

ع

عندما خُلق الإنسان وأُرسل إلى هذا العالم، وُضعت في جِبلّته بذور الخير والشر، والجمال والقبح، والنفع والضر؛ ومُنحت تلك البذورُ قابليةَ التوسع والنموّ والتطور في سفوح ماهيته الإنسانية. ومنذ تلك اللحظة تَداخل -في كينونة الإنسان- الليلُ والنهار، وظهر الفحمُ والماس جنبًا إلى جنب، وبزغ النور عقب الظلام؛ وتَصارَع الحقد والنفور مع الحب والتآلف، ودخلت الحرية في عراك لا ينتهي مع الأسر، وسلّطت النمطيةُ والشكليةُ مصايدها للقضاء على روح الإخلاص والانطلاق والعشق، وكافح الحق ضد الباطل على الدوام. ويبدو أن الصراع بين هذه المتناقضات، والتدافع بين أصحابها وممثليها، سيبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

أجل، إننا نرى -في ناحية- أرواحًا حائرة تتخبط في متاهات الأنانية المظلمة، مع جهل فادح بالطريق الهادي وإشارات الطريق، بينما نجد في -الناحية الأخرى- أرواحًا مشرقة تُعانق الخلود الماورائي في كل لحظة، وقد حسمت أمرها للإبحار في رحلة أبدية لا نهاية لها، أو بعبارة أصح عزمت على أن تعيش المعراج في عالمها الداخلي.

وبينما نرى الفئة الأولى ترتعد خوفًا في عالم من الكوابيس يبدأ بفوضى وينتهي بفوضى أخرى، نجد الفئة الثانية تعيش

في عالم مشرق من الإيمان بالماوراء الأخروي في كل لحظة من لحظات حياتها، متقلبة بين قصور الجِنان التي امتدت أطرافُها مترامية حتى التحمت بأطراف قلوب هؤلاء السعداء.

وبينما نلاحظ الفئة الأولى يائسة أسيرة مَهِيضةَ الجناح، تتجرع ألوانًا من العذاب المرير جرّاء سوء قراءتها للحياة والأحداث، وفساد تفكيرها، وعطب تقييمها، وبالتالي حرمانها من الاستمتاع بطعم الحياة؛ تُطالعنا الفئة الثانية مبحرةً في عالم يتلألأ نورًا بفضل جمال رؤيتها وحسن تفكيرها، ومن ثم فهي منطلقة محلقة نحو عوالم زاهية جديدة في كل حين، ناهلةٌ من معين سعادة غامرة لا توصف.

أجل، إن أبناء المجموعة الأولى قد خيم الظلام على عالمهم الداخلي، وأحاط بهم التشاؤم القاتم من كل جانب، لذلك فقدوا جدارتهم وأهليتهم في نفع المجتمع وإفادة أبنائه. وهيهات للأمة أن تفيد منهم شيئًا أو أن تنفعها مواهبهم بعد ذلك؛ بل إن هؤلاء لو دُفعوا لإفادة مجتمعاتهم دفعًا، فسوف تنتصب أنانيّاتُهم عائقًا حيالهم، ولسوف يتعثرون بشِباك الهوى فينهزمون أمام "أنفسهم" ويفشلون في تجاوزها، ولا يمكنهم أن يحققوا المنشود منهم أو المأمول فيهم البتة.

ولا شك أن انتظار انبثاق المروءة أو الإنسانية من قلوب هؤلاء البؤساء بعد أن امتلأت بألوان من المطامع، أمرٌ لا طائل من ورائه، ناهيك عن أن تتوقع الحبَّ منهم وفهمَهم للآخرين، فذلك ضرب من ضروب المستحيلات. وحتى لو بدا هؤلاء وكأنهم يحبون الآخرين، فبقليل من التركيز تكتشف أنهم غير مخلصين ولا صادقين في ذلك.

وإن معرفة تلك النفوس المظلمة البعيدة كل البعد عن الوضوح والشفافية والشجاعة، واكتشافَ هويتها، والاطلاعَ على حقيقتها، في منتهى الصعوبة، بل يكاد يكون متعذرًا. إذ إن هؤلاء من الحنكة والمهارة بحيث يُجيدون إظهار المشاعر الإنسانية في الوقت الذي يمارسون فيه أشنع المظالم وأفظع الاعتداءات، كما يحسنون الترائي باللين والرفق أثناء ظلمهم الصارخ وتجاوزاتهم الواضحة. هؤلاء عندما يمتلكون القوة يفتكون أشد ما يكون الفتك، ويعنُفون أشد ما يكون العنف. وعندما يعتريهم الخوف على أنفسهم أو يرون أنهم فقدوا السند والظهير، تبدو سفالتُهم جلية وتظهر دناءتُهم بيّنة، فلا يجدون حرجًا في أنفسهم من لثم الأيدي، ولا يرون بأسًا من تقبيل الأقدام. إن هؤلاء الأشقياء لا يترددون في إحراق العالم كله مقابل مصلحة ذاتية صغيرة، كما لا يترددون في انتهاك حقوق مئات الآلاف من الأبرياء مقابل منفعة خسيسة.

إن هؤلاء الأنانيين الذين يحسبون أنفسهم دعامة العالم وقاعدته، يقضون حياتهم كلها في سجن مؤبد من المطامع والرغبات، ولا يفلحون -ولو مرة واحدة- في رؤية الأشياء وقراءة الحوادث وفق جوهرها، بل لا يرغبون في ذلك أصلاً. إنهم صُمٌّ عُميٌ بلا قلب ولا إحساس... فما يحسون به أو يسمعونه خداع وضلال لا غير، وما يرونه أو يحدسونه فُتات أوهام وأضغاث أحلام، وما يُبدونه من رأي أو يطلقونه من أحكام هَذَيان كهذيان المخمورين.

والحقيقة أن هؤلاء لو وضعتَهم في ميزان التقييم الذاتي، فسوف تجدهم عديمي المواهب واللياقة، فقراءَ القدرات والخبرات، وبالتالي عديمي الفائدة للمجتمع الذي يعيشون فيه. فهم يَظهرون في قلب الواقع فجأة عندما تكون القضية هي إشباعَ الرغبات الشخصية والاستمتاع الذاتي. أما إذا تعلق الأمر بإسداء المعروف إلى الآخرين، والسعي لصالح المجتمع، ودرء المفاسد عنه، وجلب المنافع له، فلن تجد لهم أثرًا مهما بحثت عنهم.

أما المجموعة الثانية الطيبة، فقد عَرفت سرّ الانبعاث والوجود والبقاء، وانطلقت في أعماقها الذاتية بعزيمة نادرة فحققت في عوالمها الداخلية فتحًا بعد فتح، وأقبلت على تأسيس روابط من الحب والعاطفة مع كل شيء ومع كل أحد. إن هؤلاء الطيبين الذين يتمتعون بقدرات عالية في ذواتهم، مفيدون حقًّا للآخرين، نافعون جدًّا لمجتمعاتهم، لا يمكن الاستغناء عنهم أبدًا. ففي ظل راية الإرادة التي ثبّتوها في ذروة ذواتهم يناضلون من أجل الفضيلة على الدوام، وينقّبون عن التجرد والإخلاص والإيثار والتضحية دون انقطاع. إن هؤلاء القدسيين، بأرواحهم التي نضجت بنار الفكر، وعقولهم التي بلغت حد الصفاء، كأنهم ظلال لأنوار الأنبياء، يمرون على كافة المواقع التي سبقهم إليها الأنبياء من قبلُ، فيبلغون مرتبة القرب من الملائكة، ويتوحدون معهم، ويطوفون خلال صفوفهم.

وجدير بالذكر أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ينزلون في نقطة الوسط وموقع القلب بين آلاف الطوابير من كتائب أهل الحظوة والسعادة الذين يمتدون صفوفًا متعاقبة بين يدي الحق سبحانه... فنقطة الوسط تبدأ بهم وتنتهي بهم، وتليهم

مباشـرة رايات هؤلاء القدسـيين ترفرف في السماء... -نفدي أصحـابَ تلـك الرايـات المرفرفـة بأرواحنا- فهـم من يمثل أوامـر الأنبياء وينزّلها إلـى أرض الواقع. ومن ثم ما أن يلحّن قـادة القلب قصيدة الحياة، حتى يهبّ من اصطف خلفهم من القدسـيين ليترنموا بها بأرقّ الأصوات وأعذب النغمات. وما أن يبدأ سـادة الوسـط ببثّ رسائل الخير والجمال والمعقول، وإيقاد مشاعل الحقيقة في كل مكان، حتى ينطلق من اصطف وراءهـم مـن النورانييـن ليحومـوا حـول تلك المشـاعل إلى الأبد. وما أن يَشرَع أبطال القلب بنفخ الروح والانبعاث فيمن حولهم -مثل إسـرافيل وقد انتصب قائمًا ووضع الصور على شـفتيه- حتى يسعى من اصطف خلفهم من السعداء ليسربلوا الروحَ بالجسد، ويمثلوا تلك الروح في كل ساحة من ساحات الحياة في أعلى مستوى من النموذجية والمثالية.

إن الأصوات التي تتردد في ديار لم تصلها أصوات هؤلاء السـعداء بعد، ما هي إلا حشرجات؛ والعبارات التي تقال، ما هي إلا هذيان يشبه هذيان المجانين. فالعميُ الذين لم يبلغوا سـعادةَ رؤية تلك القامات السامقات، والصُّمّ الذين لم يُكتَب لهم حظّ سـماع أنفاسهم التي تَسـكُب السكينة والطمأنينة في القلوب، سـوف يخلطون بين تغريـد العندليب ونعيق الغراب طوال حياتهم، ولن يتمكنوا من التمييز بينهما أبدًا.

لقـد عَرف هـؤلاء السـعداءُ الحقيقة الكبرى منـذ البداية، فأحنـوا هاماتهـم لهـا، وطأطـؤوا رؤوسـهم أمامهـا... آمنوا بـالله ربًّـا ومعبودًا، ووضعـوا جباههم على عتبة بابه سـبحانه. وإن السـعداء الذيـن يُحنـون هاماتهـم أمام بابـه تعالى تحيّي رؤوسُـهم أقدامَهـم، وتتجول أقدامُهم في الـذّرَى التي بلغتها رؤوسُـهم. وإنّ الحلقة الناشـئة في السجود من اتصال الرأس بالقدم لَتُمكّنهم من التحليق المستمر في حالات من الصعود (عرشـيات) والنزول (فرشـيات)، تنتهي وتُتوَّج بمعراج جديد فـي كل مـرة.[1] أما إذا رفع حصـان إلهامهم قائمتيه شـامخًا، وتوثـب وهّاجًـا، فسـوف تجدهـم قـد قفـزوا إلـى مـا وراء السـماوات بنَفَس واحـد، وجالوا في ربوع الجنان، وسـابقوا الملائكـة، وأخذوا فـي الحوم والتطواف حـول من لا يمكن إدراكه -سبحانه- بحيرة وانبهار لا نظير لهما.

ومن يدري كم من مرة في اليوم يتخذ هؤلاء من الشـمس كُـرةً، ومن نجم آخر مَضرِبًا فيقدّمون لأهل السـماوات ألعابًا سـحرية شـتى، وعروضًا عجيبـة مبهرة. كم من مـرة يحلّقون بأجنحة المناجاة والضراعة فيَسعدون بلذة الوصال، ويَنعمون بقـرب الحبيب الباري وصحبـة الخليل المتعالي، ثم يعودون من ديار الأنس بدلال أكرم به من دلال. كم من مرة يجيشون بأطيـاف جديـدة من مشـاعر العشـق والوجد، ويحسـون في أرواحهم بحظوة اكتشـاف الوجود الحقيقي، فيغرقون في لذة أيما لذة ونشوة ما بعدها من نشوة.

هؤلاء السعداء، يتردد ذِكرُ الحق تعالى في أنفاسهم دومًا، وتمـوج الحقيقـة فـي أفكارهم، وتلتمـع بشـارة الخلود على ألسـنتهم، وتتـلألأ السـعادة الأبدية فـي آفاقهم. إنهـم عقدوا العـزم على إعمـار الأرض وبنائها، ولكن دون أن يخطر على بـال أحدهم الاسـتمتاع بلذائـذ الدنيا أبدًا. التجرد سـجيتهم، والإخلاصُ ديدنهم، واحتساب الأجر عند الله خُلقهم الأصيل. فهم لا ينتظرون مقابل أعمالهم جزاء ولا شكورًا، ولا يرغبون في أن تُذكَر مآثرُهم أو أن تُسجَّل بطولاتهم قاطبة.

إنه لمن المؤسـف حقًّا أن أصحاب هذه الأرواح السامية، الذيـن يمتلئـون بالفضيلـة ويفيضـون بالخيـر علـى الآخرين -امتلاءَ الأقـداح وفيضانها- اضطُهدوا دومًا، وأُهينوا من قبَل بعـض المخدوعيـن باسـتمرار، وتـم التضييق علـى حرياتهم وعلى حقهم في ممارسـة حياة كريمة شـريفة، مع محاولات شنيعة للتهميش والإقصاء خارج المجتمع والواقع.

شُقّ قلبي يا حبيبي،
وانظر إلى ما فيه من جراح،
إن بين قومنا من يمكر بنا،
مكرًا سيئًا...

* * *

أه، طويلة هي هذه الطريق،
كثيرة منازلها، قصيّة مَفاوِزها،
لا معابر فيها ولا جسور،
عميقة المياه سحيقة الوديان... (يونس أَمْرَه)

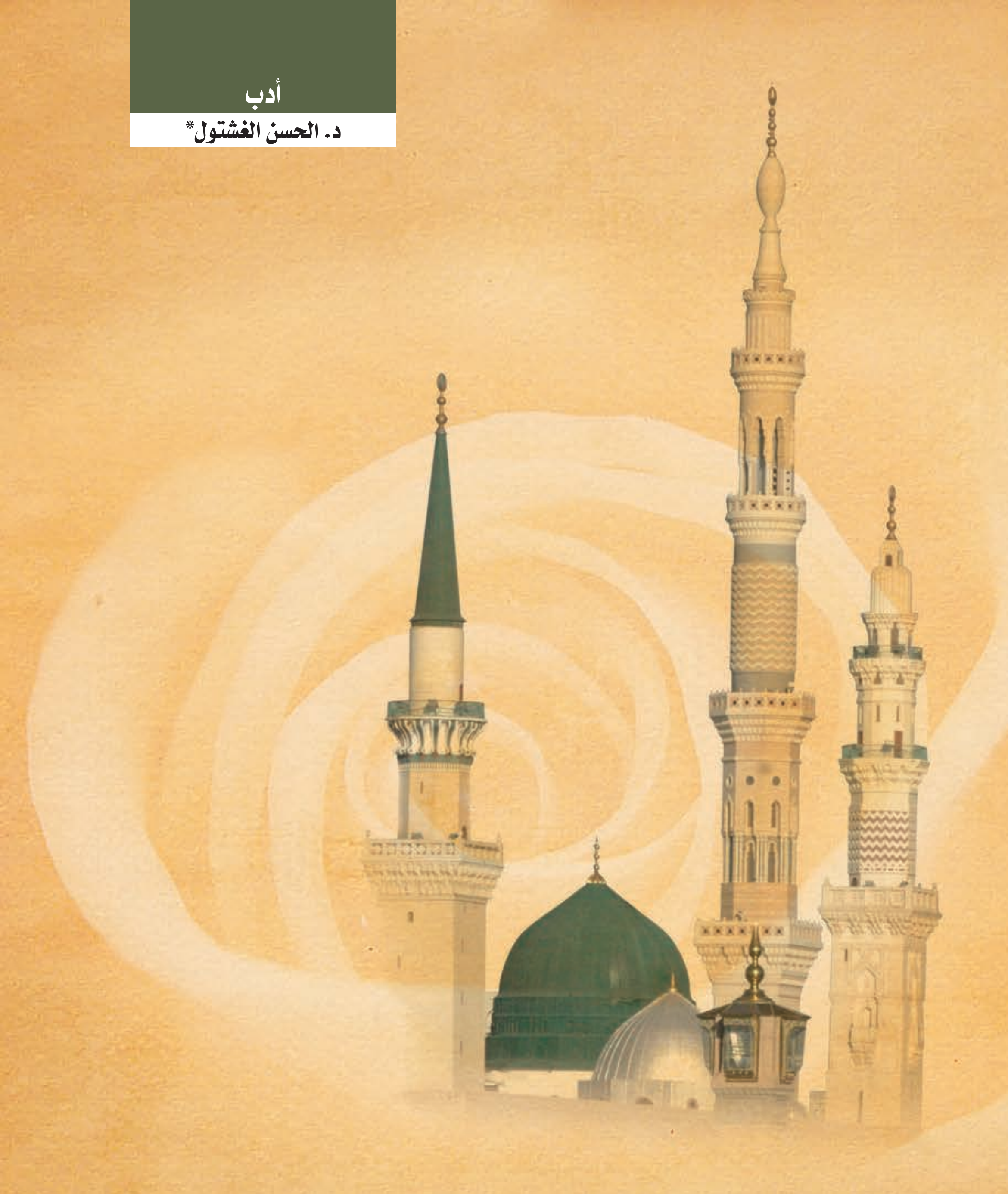
ولكـن مـا دامت الأرواحُ تشـع بالأنـوار، والضمائر تتألق بالحرية، والصدور تخفق بالإيمان، فصبرًا ومزيدًا من المرابطة والمثابرة! ■

(*) الترجمة عن التركية: هيئة تحرير المجلة.

الهوامش

[1] العرشـية: العروج من الخَلق إلى الحق تعالى، والفرشـية: السـير من الحقّ تعالى إلى الخَلق بعد بلوغ ذروة المعراج.

د. الحسن الغشتول*



رحلة في مقامات الوصال

ن

"نظرتُ فإذا كل شيء من حولي صامت صمت الرهبة، ساكن سكون الجلال، لا نأمة ولا حس ولا حركة، ولا شيء يشغل الإنسان عن التفكير في السماء والكعبة تبدو من بعيد وسط هذا الإطار الصخري... فمن كان في الغار، كأنه في الدنيا وما هو في الدنيا، يرى الكعبة وحدها فيتصل منها بكل ما هو سماوي طاهر، ويخفى عليه كل شيء غيرها فينفصل من كل ما هو أرضي ملوث. وقالت لي النفس: بماذا كان يفكر محمد وهو يقضي الأيام والليالي وحيدًا في هذا الغار؟ فقلت أنا أعرف ويحك بماذا كان يفكر محمد؟ أنا أسمو بعقلي الأرضي المثقل بالشهوات والمطامع إلى جو محمد؟ أتطمع الزواحف أن تزاحم العقبان في أكباد السماوات؟

وقعدت خاشعًا مفكرًا، وانطلق ذهني يرتاد جنبات الماضي الحبيب يتصور محمدًا ﷺ وهو في هذا المرقب

العالـي، وحيدًا مفـردًا حين جاءه البريد مـن فوق السـبع الطباق برسـالة من الله وقال له: ﴿اقْرَأْ﴾".[١]

اخـترت هـذا المثـال فـي وصـف الرحاليـن للأماكـن الشـريفة والعظيمة التي يمـرون بها ويسـتطلعون أحوالها، لأقـف علـى الفـارق الكبيـر بيـن مشاهدتين إحداهما لا تتعدى الأشكال والعوارض المنظور إليها، وأخراهما لا تنحصر مهمتها في حدود مرقب دوني، حيـث يـكل البصـر وتعجـز الحـواس عن اسـتبصار معالم الطريق، فلا سبيل لصاحب هذه المشاهدة إلا أن يتبع سنة الارتقاء.

عندما يشـع نور محمد رسول الله ﷺ في النفوس؛ فيصير الحكـي خيالاً نقيًّا، وحقيقة لا تـدرك إلا في حـال انعتاق العقـل مـن أدران المـادة وأوضارهـا... تنفصـل عن إيهابهـا البسـيط، إذ غالبًا ما تتكشف هـذه اللغة عن نقاء مصدره؛ المحبة والإيمان.

نشـوء حضـارة مدعومة بالوحـي. عادة ما يقرن علمـاء النفس والأدب حالات انفـلات الذاكرة، عبر نثيـر الموجودات في أزمنة الحكي بمفهوم التداعي، لكن أي نـوع مـن التداعـي هذا الـذي يملأ جوانـح المرء سـعادة، ويغـوص به في سـحر المكان؟ بـل أي نوع من التداعي هـذا الـذي تعجز فيـه لغـة مروضة عن الاحتفاظ بمسافة بينها وبين موضوعها؟ تعجـز، فلا يكون لها بد من أن تسـترفد ينبـوع قوتهـا من معين خـارق وأصيل. ذلـك هـو النـور المحمدي الـذي يعيد للغة وهجها وخلودها.

قـد يحمـل الرحالـة بين أطوائـه نفسًـا تواقة إلى السـفر، وساعية إلى الترفل في كل زينة ظاهرة وغير مكترثة بما يسمو بهـا إلـى مقـام التدبر. ربمـا يكون حراكـه قناعًا يرسـم دراما رهيبـة، أو فصامًا ينم عن تشـظ داخلـي يكبح جماحه، حيث لا يسـعده سـوى أن يظل هاربًا من نفسـه لغاية غير معلومة، باعتبار أن السفر في غير طاعة الحق إنْ هو إلا شكل من السم القاتل أو الإدمان الذي يخاله الواهم علاجًا نفسيًّا مهدئًا.

لكن قد يكون السـفر خلافًا لذلك، أيْ شـكلاً من أشكال الارتقاء والتسـامي من أجل الاقتـراب من الحق ذاته. والذي يحـرك الرحالة في هـذه الحالة، هو روح أصيلـة تحتكم إلى موازين دينية وخلقية مخصوصة.

إن ما يميز الرحالة المسلم في هذا المقام عن غيره، هو أن سـيره سـير اعتباري؛ فالخطوة التي يخطوها تذكّره بعظمة الخالـق. وبمـا أن للمـكان نوعًا من الجاذبيـة التي تحضر في النفوس حسب هيئات وصور مختلفة، فإن المكان الذي يحمل قداسـته يكـون له الأثـر البليغ. فما بالك لـو كان هذا المكان موطـن رسـول الله ﷺ، لو كانت تلـك الأرض موطئ قدميه؟!

أسرار المكان

نصغي إلى المكان في هذه الحال وهو يقص قصته... فالطريق إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة يجتذب الإحساس كله. لا نجد في طريق هـذه الرحلة معادلاً لفظيًّا واصطلاحيًّا، يصف ظاهرة التموج الأسلوبي والرونق التركيبي الذي يلخص تاريخ

يشـع النور في نفـس الرحالين وهم يسـيرون وفـق تواقيـع يلتحـم فيها الزمـن، ماضيـه وحاضره ومسـتقبله. يواصلـون رحلتهم من مكة المكرمـة إلى المدينة المنورة، وتحضر لديهم شـجون وتغمرهم أحلام عظيمة، ثم يتذكرون وصايا ما فتئوا يدونونها في مخطوطاتهم:

"للزائـر إذا توجـه للمدينة المشـرفة، أن يكثـر في طريقه مـن الصـلاة علـى النبي ﷺ، فـإذا وقـع بصره علـى جدرانها وأشـجارها كبّـر ثلاثًا ثم يقول: اللهم فإن هذا حرم رسـولك ونبيـك المختـار، فاجعله بفضلـك وقاية من النـار، مأمنًا من العذاب وسوء الحساب، يا عزيز يا جبار".[٢]

ويسـطع النـور المحمدي أكثـر كلما اقتربنا مـع الرحالين إلى المدينة.

وتبدو الشعاب والجبال الكالحة الترابية محدِّثة بالحقائق التـي لـم يخمدها القـدر. وكل خطـو عبر المعالـم التاريخية يذكر ببهاء نبي الإنسـانية جمعـاء. فهذه قرية بدر وتلك مقبرة القليـب... وجهـان متناقضـان للتاريـخ... غالـب ومغلوب! الطيـش البشـري مغلوب لا محالـة. ما فتـئ الراحلون يرون بشارات النصر في بدر، وما فتئ كلام يرن في الآذان... يوقظ القلوب الغلف: يا أهل القليب... يا أهل القليب.

هنا نادى الرسـول ﷺ: "يا أبا جهل بن هشـام! يا أمية بن خلف! يا عتبة بن ربيعة! يا شيبة بن ربيعة! أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟ فإني قد وجدتُ ما وعدني ربي حقًّا". فسمع عمر قول النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف يسمعوا وأنى أن

يجيبوا وقد جيفوا؟ قال: "والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم. ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا". (رواه مسلم)

نور محمد يشع في النفوس؛ فيصير الحكي خيالاً نقيًّا، وحقيقة لا تدرك إلا في حال انعتاق العقل من أدران المادة وأوضارها... تنفصل عن إيهابها البسيط، إذ غالبًا ما تتكشف هذه اللغة عن نقاء مصدره؛ المحبة والإيمان.

صوّر الرحالون مشاعرهم وعكسوا في مدوناتهم ما كان يعتريهم من أحوال نحو خير الأنام، وتركوا لنا زادًا أدبيًّا يغمره الإحساس الصادق. كل ذلك نطالعه أثناء تصفحنا للرحلات التي كتبها المسلمون من كل الأصقاع بلغات مختلفة عن المدينة المنورة، وعن المسجد النبوي وروضات البقيع، نجد ذلك في الآداب الإنسانية المختلفة... لغة هؤلاء لغة كونية وفطرية هي حبهم لله وتعلقهم برسوله الكريم. كان ذلك خليقًا بأن ينسيهم متاعب الرحلة ومصاعبها، مثلما نلفي في حكي رحالة مشفوع بنبض عقيدته الخالد وبمضاء فكره المستنير. يقول الشيخ الندوي:

"وتحملت متاعب السفر إلى المدينة، وأنا أتمثل ذلك الراكب الأول الذي ملأ الفضاء نورًا وسكينة. وصلنا إلى المدينة المنورة، وصليت ركعتين في مسجد الرسول ﷺ وحمدت الله على ذلك، ثم وقفت وأنا مُثْقَلٌ بالمنن: لا أستطيع أن أكافئها، ولا أستطيع أن أقضي حقها".(٣)

مراتب المحبة

ومن أعلى مراتب المحبة، محبة الرسول ﷺ، محبة تزدان بتوقير عظيم، توقير للمكان ولذكرى من عاش في هذا المكان. وذاك ما تجلوه أوصاف أمكنة مثل البقيع والمسجد النبوي والروضة الشريفة، وغيرها من المواضع المقدسة، حيث تمتزج فيها ذائقة الجمال بالحاجة إلى التعظيم. البقيع -كما تحكي الرحلة الحجازية- له عند المسلمين مكانة عظيمة ويقال له بقيع الغرقد، لأنه كان يكثر فيه هذا النوع من الشجر، وبه دفن نحو عشرة آلاف من الصحابة رضوان الله عليهم وكثير من آل بيت النبوة صلوات الله عليهم.(٤)

الطريق إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة يجتذب الإحساس كله... لا نجد في طريق هذه الرحلة معادلاً لفظيًّا واصطلاحيًّا يصف ظاهرة التموج الأسلوبي والرونق التركيبي الذي يلخص تاريخ نشوء حضارة مدعومة بالوحي.

والمسجد النبوي -كما جاء في رحلة العبدري- عالي السمك مبيض مدور بالسقائف عجيب المنظر... وأما الروضة الشريفة فتوجد داخله وهي "معمولة بالرخام الأبيض من الأساس إلى سقف المسجد بأتقن ما يكون من الصنعة وأعجبه".(٥)

ومن ألوان تلك المحبة اندماج الرائي في عالم موصوفاته اندماجًا روحيًّا كليًّا، فكأني بالرحالة يعبر هنا عن حنينه الأبدي لاستعادة الشعور بالصفاء المطلق؛ فما سعى بين الصفا والمروة، وما صعد جبل الرحمة، وما قام في الروضة أو مر ببدر ورأى العدوة الدنيا والعدوة القصوى، إلا شعر كأنه يعود إلى تاريخ السمو الإنساني، تاريخ السيرة النبوية. ووفق هذه الموازين الروحية، يستعيد ما أنجزه الدين في عقول الناس وأبصارهم لما غير الدنيا من حال إلى حال.

فهذه مكة لم تكن سوى قرية صغيرة متوارية بين الأخشبين، ولم تدر بها رومه، ولم تحفل بها القسطنطينية، فلما دوى فيها صوت محمد ﷺ ينادي لا إله إلا الله ولا رب سواه، لا كسرى ولا قيصر، ولا اللات ولا العزى، وأنها خابت وخسرت الأصنام كلها أصنام الحجارة وأصنام القبور، وأصنام اللحم والدم، وأن الفضل بالتقوى والعاقبة للمتقين... وقعت معجزة المعجزات، كبرت هذه القرية حتى أكلت مدن الباطل، ثم كبرت حتى ولدت مدن الخير والحق، ثم كبرت حتى صارت أم الأرض كلها.(٦)

ولنتأمل وجهًا آخر من هذا الحب الخالد، النابع من فيض النور في غار حراء، من خلال وصف بديع لحركة نورانية لهذا القاصد المستنير، الذي لا وجهة لرحلته غير الوجهة التي سلكها خير البشر أجمعين. كان أحد الناس يطأ الصخر وطء متعسف جبار، فما كان إلا أن تدحرجت حجارة بقدميه، فما كان من القاصد إلا أن صرخ، ويحك فهذي الصخور قد سمعت أول كلمة من حديث السماء في أذن الأرض، ولو استطعت لمشيت على الرأس تقديسًا وإجلالاً. "فما أجرؤ أن أطأ بقدمي الجبل الذي ضم ذراعيه يومًا على محمد ﷺ،

وسمعت أذناه جبريل يقول له: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾".[٧]

هذه المحبة ثمرة مضافة ينالها نزيل هذا المكان، لذا يهون في سبيلها كل عناء. يقول:

"كنا قد بلغنا القمة بعدما تقطعت أنفاسنا ونشفت روحنا وبلغت أرواحنا التراقي، ونظرنا فإذا نحن كالمعلق في السحاب، وإذا الدنيا كلها أسفل منا، أما الغار فكان تحتنا في مكان لا يمكن أن يصل إليه إلا من تدلى، ثم يمر من شق في الجبل حتى يبلغ فرجة في الصخر كأنها وكر نسر... ما أحسب طولها يعدو المترين، ولا يبلغ عرضها المتر، وكان هذا هو غار حراء... إننا لم نصل إلى القمة ونحن جماعة ونحن نصعد على درج منحوتة، حتى أشرفنا على الموت، فكيف كان الرسول ﷺ وحده، وكيف عرف مكان هذا الغار إلا أن يكون قد ارتاد هذه الجبال كلها أو بلغ أعاليها، وكيف كان يقيم وحده الليالي ذوات العدد، وما حوله إلا هذه الجبال السود وهذه الوحشة الصامتة المرعبة؟".[٨]

ويبقى حب الرسول حبًّا كامنًا في كل الرحلات الإسلامية حتى وإن لم تكن وصفًا للبقاع المقدسة. فشخصية الرسول ﷺ هي الشخصية التي يتداعى للدفاع عنها الرحالة المسلم، خصوصًا في تواريخ دقيقة ومفصلية في تاريخ الأمة. وذلك شأن الرحالة الموريسكي "أفوقاي الحجري"، الذي نكتشف في شخصيته أثناء مجادلاته ومناظراته للنصارى واليهود في كتابه "مختصر رحلة الشهاب"، حبًّا قويًّا للرسول الأعظم، وذلك الحب هو ما يستصحب إشارته إلى كتاب وجد في غار من "خندق الجنة" وهو موضع يوجد قرب غرناطة. ففي الكتاب حكمة تقول سيأتي في الوجود من بعد عيسى عليه السلام، "نور من الله اسمه الماحي... خاتم المرسلين... وخاتم الدين ونور الأنبياء، لا نور لهم دونه ولا لأحد من العالمين. فالذين آمنوا به يسعدون حق السعادة، وينورون حق التنوير المبين من الله".[٩]

يتبدى الحجري في عرضه الأدبي لرحلته شخصًا مؤهلاً، ليتبوأ بفضل إيمانه وتصديقه للرسالة النبوية، مقام الفاعل الذي ينجز انتقالاً حقيقيًّا من حالة إلى حالة أخرى، أي من حالة المغلوب على أمره إلى حالة المنتصر. فهذا الرجل يخرج منتصرًا في كل محاوراته ومناظراته... وهو بحق فاعل إجرائي يحقّق للسرد وظيفته الجوهرية فيخدم فكرة الاتصال، ويصبو نحو تحقيق التناغم مع الذات في ظل سياق حكائي وحواري تروم الرحلة فيه تشويق القارئ واستمالته.

صفوة القول

تلك إذن بعض الملامح التي يستطيع القارئ من خلالها، أن يستبين حقيقة الطاقة الفنية الخارقة، التي تبعثها محبة الرسول الأعظم في نفوس الرحالين في أزمنة لقائهم والتحامهم بالأمكنة التي تذكرهم بضيائه وعظمته ﷺ. وتلك حقيقة تتعدى نطاق الخيال والأدب بمعناهما المباشر، أو الوصف الجغرافي بمعناه العلمي الدقيق، إلى رحابة المجتمع والحضارة والعمران، حيث تبقى حلقات النمو الجمالي والبناء الحضاري موشوجة وموصولة، وتغدو ركائب المستقبل ورحلة الأجيال المتلاحقة في طريق الحق، ظافرة بانسيابية رفيعة ومالكة لجوهر روحي أصيل وأخاذ يمثل مكمن قوتها وبهائها على مدى الأحقاب. ■

(*) كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر / الجزائر.

الهوامش

(١) نفحات الحرم، لعلي الطنطاوي، دار الفكر، ص:٢١، دمشق ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

(٢) أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب، لأبي عبد الله القيسي المعروف بابن مليح (ـ بعد ١٠٤٠)، تحقيق محمد الفاسي، سلسلة الرحلات -٥- حجازية/٢، ص:٩٠، فاس ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

(٣) الجزيرة العربية في أدب الرحلة الأردي، لسمير عبد الحميد نوح، منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، سلسلة آداب الشعوب الإسلامية -٥- الإدارة العامة للثقافة والنشر، ص:٥٧٣، الرياض ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.

(٤) الرحلة الحجازية، لمحمد لبيب البتنوني، ط٢، مطبعة الجمالية، ص:٢٥٧، مصر ١٣٢٩هـ.

(٥) الرحلة المغربية، لأبي عبد الله العبدري، تحقيق محمد الفاسي، سلسلة الرحلات -٤- حجازية/١، ص:٢٠٥، جامعة محمد الخامس، الرباط ١٩٦٠م.

(٦) نفحات الحرم، لعلي الطنطاوي، دار الفكر، ص:١٥، دمشق ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

(٧) نفحات الحرم، لعلي الطنطاوي، دار الفكر، ص:٢٠، دمشق ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

(٨) نفحات الحرم، لعلي الطنطاوي، دار الفكر، ص:٢١، دمشق ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

(٩) ناصر الدين على القوم الكافرين، ص:٣١.

أ.د. حامد إبراهيم الموصلي*



التنمية الذاتية

ودور المجتمعات المحلية في نهضة الأمة

عندما بلغ ذو القرنين بين السدين ﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾(الكهف:٩٣)، لقد عرضوا عليه صفقة ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾(الكهف:٩٤)، عرضوا عليه صفقة للقيام بعمل معين لقاء أجر دون أي مشاركة منهم. فما كان جوابه عليهم؟ لقد نحى موضوع الصفقة جانبًا وقرر أن ينطلق من مُكْنَتِهِ هو: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾(الكهف:٩٥)، أي مما يستطيعه هو كفرد مع نسبة الفضل فيما يستطيعه إلى الله ﷻ كما لو كان يستشرف المشيئة الإلهية كي يعمل في ظلها.

المهم هنا، كيف تعامل ذو القرنين مع هؤلاء الذين لا

يكادون يفقهون قولاً؟ أبسط ما يمكن أن يقال عنهم، إنهم أميّون أو جهلاء أو عديموا القدرة على الفهم. لقد قال لهم: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾(الكهف:٩٥)، أي أنه -بعد تنحيته الصفقة معهم جانبًا- استنفر قوتهم وجعل إعانتهم له شرطًا لعمله معهم: ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾(الكهف:٩٥)، ثم عاد وطلب منهم إحضار خام محلي لديهم: ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾(الكهف:٩٦)، ثم طلب منهم المساعدة في صهر الحديد: ﴿قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا﴾(الكهف:٩٦)، ثم عاد فطلب خامًا آخر وهو النحاس ﴿آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾(الكهف:٩٦)، ليصنع سبيكة من الحديد والنحاس، أي إن ذا القرنين استطاع أن يطلق طاقاتهم وقدراتهم الكامنة التي لم تكن ظاهرة في البداية: ﴿لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾(الكهف:٩٣). وهذا هو جوهر التنمية الذاتية؛ إطلاق الطاقات واستخدام الموارد المتاحة محليًّا، لإيجاد حل مناسب لمشكلة أو تحدٍّ واجها المجتمع المحلي.

التنمية الذاتية هي استعادة الناس للمبادرة وحقّهم في الاختيار؛ اختيارِ أهداف الحياة ومعنى التقدم ومضمونه، وحقهم في المشاركة في التنمية وفي بناء مستقبل المجتمع أو الأمة. والتنمية الذاتية هي تمكين أبناء المجتمعات المحلية تنظيميًّا وعلميًّا وتكنولوجيًّا كي يكونوا منتجين ومبدعين.

التنمية الذاتية

هي عملية التحول المستمرة للمجتمع المحلي، التي تؤدي إلى إطلاق الطاقات الكامنة فيه، والتي تنمي قدراته على التجدد الذاتي والنهضة، والتي تمكنه بالتالي من التعبير عن هويته وقيمه الحضارية المميزة، والتنمية الذاتية قد تبدأ بعوامل مساعدة من خارج المجتمع المحلي، أو تكون نابعة بالكامل من داخله. هي دعوة لمشاركة عامة الناس في التنمية، وإطلاق طاقاتهم الخلاقة وقدراتهم على التفكير والخيال والتعاون والعمل، مما يفتح المجال للإبداع المحلي في كل المجالات الفعالية الإنسانية والنهوض الحضاري في كل مكان. هي دعوة لتخطيط يبدأ بإعطاء دور رئيسي لمشاركة عامة الناس وتوظيف طاقاتهم الخلاقة في التنمية، مما يمكن أن يفضي إلى نموذج جديد للتحديث؛ قائم على الإبداع المحلي والاعتماد على الذات.

وتنطلق التنمية الذاتية من النظرة المتعاطفة والمنصفة للناس، والثقة فيهم والرهان على كل ما هو إيجابي في نفوسهم، ومن الاعتماد على النسيج الاجتماعي الحضاري الحي للمجتمع المحلي، ومن النظرة إلى المجتمع المحلي باعتباره كائنًا حيًّا قادرًا على الفعل والحركة، وحاملاً لمقومات نموه ذاتيًّا وذي هوية متفردة، وملامح وقسمات تهبه طابعًا خاصًّا وتميزه عن غيره من المجتمعات المحلية.

وعلى مستوى الفرد تنطلق التنمية الذاتية من النظر لكل إنسان باعتباره معجزة في ذاته، وأن لديه إمكانات كامنة للفعل والإبداع تميزه عن غيره من بني البشر. وتتيح التنمية الذاتية -على مستوى الفرد أيضًا- الفرصة للتفاعل النفسي/الاجتماعي في حدود طاقة الفرد على التواصل والتفاعل والعمل والمشاركة الإيجابية في مجتمعه المحلي، وكذلك في حدود قدرته على أن يرى ويلمس ويدرك ناتج تفاعله وعمله، أي إن دائرة النية والعمل ورؤية ناتج العمل، تنغلق على مستوى المجتمع المحلي، فيستطيع الفرد بالتالي أن يصحح رؤيته ويعدل مسار عمله ويعيد الاختيار، فيدخل في دائرة تفاعل جديدة وهكذا، ألا يعد ذلك مجالاً لتغيير النفس.

ومن زاوية التدخل كعامل مساعد، تعني التنمية الذاتية السعي لإزالة عمي القلوب والعقول والأبصار، والسعي للخروج بالناس من حالة الغيبوبة والعجز والسلبية وانتظار الحلول الجاهزة، إلى المشاركة الفعالة في صنع واقعهم واستعادة دورهم كفاعلين ومعاصرين في سياق مجتمعاتهم المحلية. كما تعني التنمية الذاتية السعي لصناعة المناخ الذي يساعد وييسر على كل إنسان اكتشاف أو إعادة اكتشاف ذاته في سياقات واقعية متزايدة الاتساع، تبدأ من أصغر وحدة اجتماعية ينتمي إليها فالمجتمع المحلي فالقومي فالإقليمي فالعالم أجمع.

ويبدأ تفعيل التنمية الذاتية بفهم السياق العام للمجتمع المحلي وما يحوزه من إمكانات ذاتية، سواء كانت قيمًا إيجابية دافعة للعمل والإبداع، أو شبكات علاقات اجتماعية فاعلة، أو أشكال من التنظيم الجماعي المحلي، أو معارف واسعة يحوزها الناس عن المحيط الحيوي وعن الموارد المحلية، أو

التراث التقني (المعارف والمهارات والقدرات التقنية) والذي هـو حصيلة تفاعل أبناء المجتمع المحلـي مع البيئة المحيطة عبـر آلاف السـنين مـن أجـل إشـباع حاجاتهـم الأساسـية، كمـا تضـم الإمكانـات الذاتية الخامـات والمـوارد المحلية.

وتعنـي التنميـة الذاتيـة الاعتـراف بالتنـوع فـي الظـروف الأيكولوجيـة، والخبـرات التاريخيـة، والبنـى الاجتماعيـة والاسـتفادة منه؛ أولاً في اكتشـاف الميزات النسبية والتنافسية التـي يتميـز بهـا كل مجتمـع محلـي كمنطلـق لإقامة أنشـطة اقتصاديـة ناجحـة. وثانيًـا فـي إثـراء التجربـة التنمويـة علـى المستوى القومي والإقليمي والعالمي.

كذلـك تعنـي التنمية الذاتيـة، إنصاف العديـد من عناصر الطابـع المحلـي فـي المسـكن والملبـس والأثـاث والمأكل والأنشـطة الاقتصاديـة... إلـخ. ولا يعنـي ذلـك تجميد هذه العناصـر علـى صورتها الراهنـة، فالعديد من عناصـر الطابع المحلـي يمكـن أن تحمـل صفتـي الثبـات والتغيـر في نفس الوقـت. فالبناء بالطيـن -مثلاً- فكرة، لكن هناك بدائل عديدة مـن المـواد (الطيـن والطفـلات... إلـخ) والتقنيـات وكذلك التصميمات. الأهم هو اكتشـاف الشفرة والتعبيرية الحضارية الكامنـة خلف الطابـع المحلي، مما يعطـي اتجاهات متميزة للتفكيـر والخيـال والإبـداع المرتكـز علـى خصائـص البيئة المحلية والخصوصية الحضارية للمجتمعات المحلية.

ما الذي تعنيه التنمية الذاتية بأعم وأوسع معانيها؟ إنها تعني استعادة الناس -عموم الناس- للمبادرة وحقهم في الاختيار؛ اختيـار أهـداف الحيـاة ومعنـى التقـدم ومضمونـه وحقهـم فـي المشـاركة في التنمية وفـي بناء مسـتقبل المجتمع/الأمة. كذلـك تعني التنمية الذاتية تمكين أبنـاء المجتمعات المحلية تنظيميًّا وعلميًّا وتكنولوجيًّا كي يكونوا منتجين ومبدعين، كما تعنـي التنميـة الذاتية التخلـي عن صيغة "التحديـث" الجاهزة والمرتبطة بالتلقي السـلبي، لثمرات إبداع وعمل الآخرين في صورة سـلع وأسـاليب جاهزة للحياة والاسـتهلاك والإنتاج، مما يؤدي إلى خمود القدرات الإبداعية الذاتية. ■

(*) رئيس الجمعية المصرية للتنمية الذاتية للمجتمعات المحلية / مصر.



د. محمد باباعمي*



أولى زخّات الثلج

تعظني وتبكيني

في مكتبي، أعالي جبال "شَمْليشا"، عبر نافذتي... من بعيد يغمز لي "البوسفور" بعيون لازردية، ومِن فوقه جسر العبور من أوروبا إلى آسيا، يرسم أملَ مستقبلٍ للعالَم جديدٍ، يتزحزح فيه المحور من الغرب إلى الشرق، وفوق الجسر ناسٌ... بل بشرٌ من كل جنس ولون، يحملون آمالهم وآلامهم، أحلامهم وأفكارهم، ولا يرى بعضهم من بعض سوى المظاهر والأشكال، أمَّا "السرائر" فتبقى غامضة إلا على من ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾(غافر:١٩).

فجـأةً ودون سـابق إنـذار، يكسـر المشـهدَ البعيد مشـهدٌ قريـب، وكم مـن بعيد أخفى على العبد نعمـة القريب... إنها زخّـات ثلـج ناعـم هفهـاف، تتنزل فـي صمت من السـماء، فتلامس أغصان الشـجر، وتدغدغ أنوف البشر، وتحكي قصة "البياض الذي يقهر السواد"، وهي في ذلك لا تفرّق بين سعيد وشـقي ولا بين فقير وغني... لكنَّ كل واحد من هؤلاء على اختلاف مصدره ومورده، يسـتقبلها حسـب سـعة قلبه، ووفق إنشـاره وقبضه... فكم من مترفٍ نظر إليها نظرةً شـزراء بلهاء حانقة، وكم من معدم بسـط كفيه إلى السـماء، والتقط واحدة مـن "حبات الخير" فأودعها فاه راضيًا مرضيًّا، حامدًا شـاكرًا، سعيدًا منعَّمًا... "كأنما حيزت له الدينا بحذافيرها".

زخات الثلج تقول: أخي، أختي، الدنيا هي قلبُك، وقلبُك هـو الدنيا، فإن يك واسـعًا رحبًا صفَّق الكـون مرَحًا ورحابة، وإن يك هذا القلب -وا حسـرتاه- ضيّقًا حرجًا عبس الوجود وقطَّب حاجبيه حسـرةً وأسـفًا! فانظر ماذا ترى، وارسـم على لوحة الزمن أيَّ شكل تريد وأيَّ لون تشاء.

بعض الناس ما أشقاهم، يضمِّخون العالم بالأحمر الفاقع، وآخرون يسـوّدونه عنوة ويحاربون البياض بشراسة، وآخرون لا يـرون لمـا حولهم لونًـا ولا طعمًا، فهم أحـلاف "اللالون" وأحلاس "اللامعنى"... وآخرون... وآخرون.

أمَّـا بعـضٌ مـن عبـاد الله، فتجدهم يفرشـون القفـر وردًا وزهـرًا، ويُعبِقون الدنيا عطرًا وعنبرًا، وتأبى شـفاههم وصف شـيءٍ بالسـلب، إذ كلُّ شيء -سوى الشـر- في مذهبهم قابلٌ للقبـول، وكلُّ أمـر سـوى الفسـاد والقبـح أهـل لأن يلتفـت إليه... إنَّ هؤلاء هم رسـلُ السـماء، وخلائفُ الأنبياء، ورواد الأصفياء... فهم الثلج الذي تتناثر حبَّاته النورانية من السـماء رحمة من رب الثلج ورب السماء.

آهٍ، مـا إن انتهيـت مـن خطّ أولـى كلماتي المرتعشـة في وصف أولى الزخات المتساقطة حتى افترشت الأرض بياضًا ناصعًـا، وهـا هي ذي النباتات والحيوانات والحشـرات تهلّل وتستبشر، فتعلنه حفل زفاف لهذا العام السعيد، تعلنه بالحمد والشـكر والاعتراف بالنعمة للمنعـم الحميد... أمّا الكثرة من البشر -المستعدون لحفل الكريسماس- فهم غافلون سادرون عـن المنعِـم، عائمـون غرقون فـي محيطات النعـم وبحارها ووديانهـا ولسـان حالهـم يـردِّد: هي هكذا جـاءت، وهي من هبـة الطبيعة المعطاء، أو هي شـراكةٌ بين الأب والابن وروح القدس، أو هي الصدفة آثرتنا على العالَمين... بل هو التطور، وسلسـلة الأسباب المادية، والفهم العلمي... كلُّ أولئك أنعم علينـا هـذا الخير العميـم... فلـمَ الحاجـة إذن للإيمان برب واحد أحد، فرد صمد، لا نراه ولا نعرفه؟!

فتحتُ النافذة والتقطتُ بيدي اليمنى زخَّة واحدة لا أكثر، ثـم عجَّلـتُ في إغلاقها حتـى لا أزكم، والتفـتُ إلى الضيفةِ، وسـألتها بصـوت هـادئ رفيق: مَن ربُّك، مَـن خالقك، من ذا الـذي ألقـاك من السـماء، ومَـن الذي اعتنى بـك فهبطت من المسافات الشامخة دون أن تتهشَّم عظامك، ومن أمرك بسقي نبتة أو دودة أو طفلة... أو حتى ملحد جاحد كفار؟

سـكتت برهـة وأزاحت النقاب عن وجههـا الصبوح، وما درت أنهـا قتلتني بعينيها الحوراويـن الكحلاوين النجلاوين، وبخدّها المبلَّل بدمع سخين، والمجمَّل بخان وحنين، قالت: أهذا سؤال يسأله عاقل؟

قلت: أنا مِن أبي إبراهيم تعلَّمت السـؤال، ألم يسـأل ربه: ﴿رَبِّ أَرِنِـي كَيْـفَ تُحْيِـي الْمَوْتَى﴾(البقرة:٢٦٠)، أفلـم يجبـه سـبحانه: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾(البقرة:٢٦٠)، ألـم يقل بعد ذلك: ﴿بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾(البقرة:٢٦٠).

كذلـك أنـا: "ليطمئـنَّ قلبـي"، "ليطمئـنَّ قلبـي"، "ليطمئنَّ قلبي"...

تنهَّدت وسـبَّحت واسـتغفرت ثـم قالت: نعـم، صدقت، إنـه الله ربـي وربـك ورب كل شـيء، فسـبحانه وهـو القائل: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۞ وَالنَّخْـلَ بَاسِـقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ۞ رِزْقًـا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾(ق:٩-١١).

قلـت بأعلـى صوتي "سـبحان الله"... ثم التفـتُ إلى يدي فألفيتها مبلَّلـة وقد ذابت الثلجة المعلّمة، ولكنَّها تركت كلمة محفورة على راحة يدي، فقرأتُها مشفقًا منها، باكيًا:

أخـي، لا تقف فـي "بلدةً ميتًـا"، ولكن واصـل واتلُ قول الحقّ مؤمنًا موقنًا: ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾.

اللهـم نجنا يوم الحشـر، ويـوم البعث، ويـوم الخروج... آمين. ■

(*) مدير معهد المناهج، الجزائر العاصمة / الجزائر.

أ.د. محمد الروكي*



العلم والأخلاق
وأثرهما في بناء الإنسان
عند النورسي

إن القارئ لرسائل النور، الدارس لنصوصها، المتأمل في سطورها، يجد لا محالة أن فكره قرآني المصدر والغاية، قرآني المضمون والمنهج، ومن ثم فإن العلم الذي تحدث عنه ودعا إليه وحثّ الناس عليه، وأودع مادته في رسائله، هو العلم القرآني الرباني الذي يفتح البصائر، وينوّر العقول، ويزيل الأقفال عن القلوب... هو العلم الذي يعرّف بالله جَلَّ جَلَالُهُ، ويهدي إليه ويوصل إليه... هو العلم النافع الراشد الذي يستقيم به الإنسان ويحمله على الصلاح والإصلاح، ويكفّه عن العصيان والفساد والطغيان... هو العلم الذي يقود صاحبه إلى الفضائل ويحمله على التحلي بالأخلاق العالية ويوجهها ويرشّدها ويحافظ عليها، فهو قرينها وملزومها؛ إذ لا يحل العلم القرآني الرباني قلبًا إلا شرحه لأخلاق الإسلام ومكارمه، ولا يدخل عقلاً إلا أشبعه بالقيم العالية والمبادئ السامية، وحرَّك صاحبهما إلى العمل الرشيد والفكر السديد.

وإذًا فالعلم الذي لا يثمر هذه الأخلاق، ولا يفضي إليها ويحمل صاحبه عليها، هو في نظر النورسي لا قيمة له ولا جدوى منه ولا نفع فيه، وليس هو الذي يستحق أن يسمى علمًا.

والمتتبع لكلام النورسي في فقه علاقة العلم بالأخلاق، يجد أنها قائمة -في فكره- على أساس التأثر بخصائص العلم القرآني الرباني، وهي خصائص تميزه عما سواه، بعضها يحلي بالفضائل والكمالات، وبعضها يخلي من الرذائل والنقائص، وبهذه التحلية والتخلية يتم بناء الإنسان على النحو الأكمل، وتستقيم صياغته على الوجه الأجمل. فينشأ عن هذا البناء وهذه الصياغة مقام ثالث بين مقامي التحلية والتخلية، هو ما يمكن أن نسميه بـ"مقام التجلية"، وهو مقام تظهر فيه على الإنسان السالك الواصل آثار نعم الله، وتتلألأ حوله مصابيح البركات الرحمانية، وتتجلى فيه أنوار الفيوضات الربانية الصمدانية. ونستعرض -فيما يأتي- عشرًا من هذه الخصائص في ضوء رسائل النور وفكر النورسي، الخمس

الأولـى منهـا في التحلية، والخمس الأخـرى في التخلية، مع كثيـر مـن الاختصار والإجمـال، لأن القصد هو إبـراز علاقة العلم بالأخلاق من خلال هذه الخصائص.

١- الدعوة إلى الإيمان

العلم القرآني الرباني يدعو بطبيعته إلى الإيمان، ويصقل فكر صاحبـه ويعرفه بالله ﷻ، فينبع مـن هذه المعرفة إيمان صادق يشـعّ نوره في القلب، ويسـري تياره إلى العقل... والإنسـان فـي نظر النورسـي مهيأ -بما أودعـه الخالق فيه من خصائص ومقومات- لتلقي هذا العلم، والانخراط في سلكه، والاندراج في مجرته، والاسـتجابة إلى ما يدعـو إليه من الإيمان... فهو يقـرر أن العلـة الكبرى لمجيء الإنسـان إلى هـذا العالم هي العلم المعرِّف بالله تعالى، المشـعر بالعجز والافتقار إليه جل وعلا... ثم يعلّل ذلك بأن كل شـيء في هذا الإنسـان "موجّه إلـى العلـم ومتعلـق بالمعرفـة حسـب الماهية والاسـتعداد، فأسـاس كل العلـوم الحقيقيـة ومعدنها ونورهـا وروحها هو معرفـة الله تعالـى، كما أن أُسّ هذا الأسـاس هـو الإيمان بالله جل وعلا".

٢- الدعوة إلى العمل

المقصـود بالعمـل هنا، العمـل بمقتضيات الإيمـان. فكما أن العلم القرآني يدعو الإنسان إلى أن يؤمن بربه ويعتقد الكمال المطلـق في ذاته وصفاته وأفعاله، فإنه أيضًا يدعوه إلى العمل الصالـح وفعـل الجـوارح المصدّقـة لمـا انعقد عليـه القلب والعقـل مـن حقائق الإيمان وقيمه، ويسـتفيض النورسـي في الحديـث عن الإيمـان والعمل وعمق العلاقـة بينهما، وأنهما جـزآن متكاملان يكونان بثنائيتهما صورة واحدة ذات شـقين يدعو إليها العلم القرآني الرباني.

والعمـل الناجح هـو الصالح المطبـوع بطابع الإخلاص، الموصـول إليـه بالتضحية والفـداء مع نكران الـذات والنجاة من الرياء.

وأعلى مراتب العمل ما تجاوز مصلحة الفرد إلى مصلحة الجماعة، لذا فقد ألح النورسي على وجوب رعاية العمل في الحيـاة الاجتماعيـة، والسـير به فيها نحـو مقاومة الاختلاف، ومناصـرة الوحـدة والاتفاق في ظل قانون آيـة الأنفال: ﴿وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَـلُوا وَتَذْهَـبَ رِيحُكُمْ﴾(الأنفال:٤٦)، وآية المائدة: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾(المائدة:٢).

٣- الدعوة إلى العبادة

العبادة بمفهومها الواسـع عند النورسـي، هي إظهار الإنسـان عجـزه وافتقاره إلى ربه جل وعلا في كل شـيء، إظهارًا يعبر عن عبوديته المشـربة بالمحبـة والطاعة والإخلاص. والعبادة بهـذا المعنى داخلة في سـاحة العلم، لأن غايته الكبرى -كما تقـدم- هي الوصول بالمتعلم إلى معرفة الله تعالى التي تدفعه إلـى عبادتـه وطاعتـه، لأن معرفـة المعبـود على ما هـو عليه مـن الكمـال المطلق توجـب محبته، ومحبتـه توجب طاعته، وطاعـة المعبـود هـي ثمرة العبـادة، فلـزم أن العلـم داعٍ إلى العبادة وجالبٌ لها، وأنها من مشمولاته، ولا سيما وهي وقود الإيمان وأبرز مظاهر العمل وأشرف صوره، وقد سبق أن من خصائص العلم، دعوته إلى الإيمان والعمل.

٤- الدعوة إلى حفظ الفطرة

الفطرة قرينة الإيمان والعبادة، لأن الإيمان لا يكون راسخًا إلا عند ذوي الفطر السـليمة، والعبادة لا تخلص لله تعالى إلا مع صفاء الفطرة ونقائها. وإذًا فكل من رسوخ الإيمان وإخلاص العبـادة منوط بصفاء الفطرة. ولمـا كان العلم القرآني الرباني يدعـو إلى الإيمان والعبادة -وهما لا يسـتقران إلا مع الفطرة السليمة- فإن من خصائص هذا العلم، اللازمة عن ذلك دعوته إلى حفظ الفطرة وبقائها صافية نقية. ومن هنا يقرر النورسـي أن العلم بحقائق الشـريعة، يحافظ على موازنة قوانين الفطرة وروابط الاجتماعيات.

٥- الدعوة إلى مكارم الأخلاق

الشـريعة الإسـلامية كلها مـكارم وفضائل، والتحلـي بها إنما يكون بتطبيق هذه الشـريعة التي هي بمنزلة الشجرة وثمراتها؛ المـكارم والفضائـل، وتطبيقها مأتـاه؛ العلم بهـا، وفي غياب العلـم بها يمتنع تطبيقها على الوجه الصحيح المرضي، وعند ذلك تحل الرذائل محل الفضائل، والنقائص محل الكمالات، والشـقاوة محل السـعادة... يقول النورسـي وهو يقرر ذلك: "أجل، إنه لا سعادة لأمة الإسلام إلا بتحقيق حقائق الإسلام، وإلا فـلا، ولا يمكـن أن تـذوق الأمة السـعادة فـي الدنيا، أو تعيـش حياة اجتماعية فاضلة إلا بتطبيق الشـريعة الإسـلامية، وإلا فلا عدالة قطعًا ولا أمان مطلقًا؛ إذ تتغلب عندئذ الأخلاق الفاسدة والصفات الذميمة، ويبقى الأمر معلقًا بيدي الكاذبين والمرائين".

هـذه بعض خصائـص العلم الرباني فـي شـقها القائـم علـى التحليـة، دعوة إلى الإيمـان والعمل والعبـادة والفطرة ومـكارم الأخـلاق. وعلاقـة العلـم بالأخـلاق مـن موقـع هـذا الشـق، هي علاقـة الحفظ الوجـودي للأخلاق، أما شـقها الثاني القائم على التخلية، فعلاقة العلم فيه بها هي علاقة الحفظ العدمي. ونسـتعرض هـا هنـا خمـس خصائص أخرى من هذا الشـق متوالية ومتسلسلة مع الخمس السابقة.

لا سعـادة لأمـة الإسـلام إلا بتحقيـق حقائـق الإسـلام وإلا فلا، ولا يمكـن أن تـذوق الأمة السعـادة في الدنيـا، أو تعيش حياة اجتماعية فاضلة إلا بتطبيق الشريعـة الإسلاميـة، وإلا فـلا عدالة قطعًا ولا أمـان مطلقًا؛ إذ تتغلب عندئذ الأخلاق الفاسدة والصفات الذميمة، ويبقى الأمر معلقًا بيدي الكاذبين والمرائين.

٦- الحماية من الضلالة

من خصائـص العلم الربانـي أنه يحمي صاحبه من الضلالة، سواء كانت ناشئة عن جهل أو عن علم. والحماية منها تكون قبلية وبعدية، فالقبلية هي وقاية الإنسـان مـن الوقوع فيها وإبعـاده عن دائرتها، والبعدية هي إنقاذه منها إذا وقع في مستنقعها.

ويقـرر النورسـي في هذا الصـدد أن الإنقاذ مـن الضلالة الناشـئة عـن جهل، أيسـر وأهون من الناشـئة عـن علم؛ لأن الواقع في الثانية معجبٌ بنفسـه، غارقٌ في هواه، لا يكاد يرى حقيقة أمره من سوء ما هو فيه من الوهم. يقول النورسي: "فيا أخـي، إنك تعلم جيدًا أن الضلالة إن كانت ناجمة من الجهل فإزالتها يسير وسهل، ولكن إن كانت ناشئة من العلم فإزالتها عسـير ومعضل. وقد كان هذا القسـم الأخير نادرًا فيما مضى مـن الزمـان، وربمـا لا تجد من الألف إلا واحدًا يضل باسـم العلم. وإذا ما وُجد ضالّون من هذا النوع ربما يسترشد منهم واحـد من الألف، ذلـك لأن أمثال هؤلاء يعجبون بأنفسـهم، فمع أنهم يجهلون يعتقدون أنهم يعلمون".

وقـد نفى النورسـي العلم عـن الواقعين فـي الضلالة عن علـم. فعلمهم هـذا إنما هو في وهمهم، ولو كان عندهم علم حقيقـي مـا وقعوا في الضلالـة، لأن العلم يحمـي منها، فلزم أن مـا معهـم مما يتوهمـون أنه علم، ليس بعلـم. وهذا الذي يقرر النورسـي هنا، هو مسـتمد من القرآن ومقتبس من نوره، فقـد قـال ربنـا ﷻ: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّـونَ بِأَهْوَائِهِـمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّـكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾(الأنعام:١١٩)؛ فقد صرحت الآية بنفـي العلـم عن الواقعين فـي الضلالة والموقعيـن فيها، وأن مسـتندهم فـي ذلك إنما هـو أهواؤهم، ويسـتفاد مـن الآيـة عـن طريـق مفهوم المخالفة، أن المتحصـن بالعلم الرباني محمي من الضلالة.

٧- الحماية من الفساد

الفساد نتيجة الضلال، وكما أن الضلال والإضـلال سـببه الجهـل ولـو توهـم الضـال أنه علـى علم، فكذلك الفسـاد والإفسـاد سـببه الجهل ولو كان باسـم العلـم، والحامـي منهمـا معًا هـو العلم القرآني الرباني، فمعه لا مجال للفسـاد والإفساد.

والحديث عن الفسـاد كثيرًا ما يقرنه النورسي بالحديث عن الضلال، لما بينهما من علاقة التلازم. وفي كل منهما يتحدث النورسي عن الناشئ عن جهل، والناشئ عن علم، وأن الأول أهون من الثاني وأيسر في رفعه وإزالته.

٨- الحماية من المعاصي

الحديـث عـن المعاصـي كالحديـث عـن الفسـاد والضلال، لأن المعصيـة ضـرب من الفسـاد، وهما معًا من مشـمولات الضـلال. والعلـم الربانـي يحمي مـن ذلك كله حمايـة قبلية بالوقايـة، وبعدية بالعلاج. فلا سـبيل إلى وجود المعاصي إذا كان الإنسان متسلحًا بالعلم، متحصنًا برشادته وهداه. ويستدل النورسـي على ذلك بأدلة كثيرة من النقل والعقل والمشاهدة؛ نجتزئ من ذلك بحديث أنس ﷺ الذي قال: لأحدثنّكم حديثًا لا يحدثكم به أحد بعدي، سـمعت رسـول الله ﷺ يقول: "من أشراط الساعة أن يقل العلم ويظهر الزنا" (رواه البخاري).

فواضح من الحديث أن الزنا -وهو المعاصي- إنما يظهر ويفشو إذا قل العلم وفشا الجهل، وهذا يدل عن طريق مفهوم المخالفة أن العلم يحمي من هذه المعاصي.

٩- الحماية من البدع

البدع هي ما أُحدث في الدين مما ليس منه من أمور العبادات، وهي ضلالة كما سماها النبي ﷺ: "كل بدعة ضلالة" (رواه النسائي)، واسـتدل النورسـي على بطلانها، وأنها مردودة على صاحبها بأدلـة منها قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾(المائدة: ٣). ففي القرآن كفاية، وما لم يفصل فيه فالسـنة شـارحة له ومبينة

مفصلة بما فيه الشفاء والغناء؛ "إن شعاع السنة المطهرة لهو الإكسير النافذ، فالسنة المطهرة كافية ووافية لمن يبتغي النور، فلا داعي للبحث عن نور في خارجها".

١٠- الحماية من الاستكبار

من آثار الجهل الاستكبار، ومن الاستكبار الأنانية التي تحدث عنها النورسي في مواضع كثيرة من رسائل النور، وبيّن أن التخلص منها ومن آفاتها وأضرارها، لا يتم إلا بحب الجماعة والذوبان في بوتقتها، ولا يرتقي لهذه الدرجة إلا مَن أُوتي نصيبًا من العلم.

جاء في "ملحق قسطموني" ما نصه: "فينبغي للقريبين من دائرة رسائل النور من أرباب العلم وأهل الطريقة وأصحاب المشارب الصوفية الانضمام إلى تيار النور، ليمدوه بما لديهم من رأسمال سابق، والسعي لتوسيع دائرته، وحث طلابه، وبث الشوق في نفوسهم، وإذابة الأنانية وإلقائها كقطعة ثلج في حوض الماء السلسبيل للجماعة، ليغنم ذلك الحوض الكوثري كاملاً، وإلا فمن يفتح نهجًا جديدًا ويسلك طريقًا آخر، يضر هذه الجادة القرآنية المستقيمة القويمة من دون أن يشعر، ويتضرر هو بنفسه أيضًا، بل قد يكون عمله نوعًا من العون للزندقة دون شعور منه".

أثر علاقة العلم بالأخلاق في بناء الإنسان

سبق في المبحث الأول، الحديث عن علاقة العلم بالأخلاق، ووجه هذه العلاقة الذي تفسّره خصائص العلم الرباني، التي يتكامل فيها ما يتجه في وظيفته نحو التحلية، وما يتجه نحو التخلية. ونريد ها هنا أن نبين -بشيء من الإجمال أيضًا- ما ينشأ عن ذلك، وينبني عليه من الآثار التي تنعكس على الإنسان، وتعود عليه بإحكام بنائه وإتقان صياغته فردًا وأسرة ومجتمعًا، في فكره وقلبه وروحه وسائر مقوماته المادية والمعنوية. وهذه الآثار كثيرة الانبثاث في رسائل النور، راسية في فكر النورسي، نجتزئ منها بعشرة تُعتبر أصولاً لما سواها ولبنات أساسية في بناء الإنسان.

الأثر الأول هو اكتساب زاد الطريق: إن الأثر الأول واللبنة الأولى من لبنات بناء الإنسان الناشئ عن علاقة العلم بالأخلاق، هي دفعه إلى اكتساب زاد الطريق إلى الله جل وعلا، والاستعداد للقائه والعرض عليه. فمن اكتسب زاد الطريق سار، ومن سار وصل. "إن جميع أهل الاختصاص والشهود، وجميع أهل الذوق والكشف من العلماء المدققين والأولياء الصالحين، متفقون على أن زاد طريق أبد الآباد وذخيرة تلك الرحلة الطويلة المظلمة ونورها وبراقها، ليس إلا امتثال أوامر القرآن الكريم واجتناب نواهيه".

الأثر الثاني هو التكمل والاكتمال. والأثر الثالث هو الترقي: غالبًا ما يرادف النورسي بين هذين الأثرين، ويتحدث عنهما في نفس واحد. والتكمل هو بذل ما فيه كلفة لنيل درجة الكمال، والاكتمال هو نتيجة التكمل ومطاوعه. والترقي هو بذل الكلفة للارتقاء في درجات الكمال، فهذان أثران من آثار العلم القرآني الرباني في علاقته بالأخلاق، وهما لبنتان من لبنات بناء الإنسان السوي. وقد تحدث عنهما النورسي في مواضع من رسائله، وبين أن التكمل والاكتمال يكون بالتعلم، وأن الترقي يكون بكسب العلم والمعرفة، وأن الإنسان يتميز بهما عما سواه من المخلوقات السفلية، وأنهما محطته الأولى للسير إلى الأمام والعروج إلى المقامات العليا.

الأثر الرابع هو النظر البعيد. والأثر الخامس هو التأني. والأثر السادس هو الحكمة: هذه الآثار الثلاثة كلها من نتائج العلاقة التلازمية بين العلم والأخلاق، وكلها أدوات لبناء الإنسان الأرقى، وهي متلازمة متكاملة يأخذ بعضها بحجز بعض. فالنظر البعيد معناه: اعتبار مآلات الأمور، ووزن الأفعال والتصرفات بعواقبها وخواتمها. والتأني ضد العجلة، فاتخاذ القرارات مثلاً ينبغي أن يكون محكومًا بالأناة والتؤدة وطول النظر وعمق التفكير حتى لا يقع الخلل. والحكمة وضع الشيء في موضعه المناسب، وكل من هذه القيم العالية والمعاني السامية هي محطات في تكوين الإنسان الراشد. وكثيرًا ما يتحدث عنها النورسي في نسق واحد، لأنها ثلاثية متماسكة تكاد لا تتجزأ في كلامه ورسائله.

الأثر السابع هو القوة. والأثر الثامن هو العزة. والأثر التاسع هو التوفيق: هذه الثلاثة هي أيضًا من آثار علاقة العلم بالأخلاق، وهي محطات مهمة في بناء الإنسان وتخريجه قويًّا عزيزًا موفقًا... والقوة في ميزان التربية الإسلامية لا تنفك عن الأمانة، ولا يقارنها بطش ولا إهانة. والعزة لا تنفك عن العدل والحق ولا يصاحبها غرور. والتوفيق لا ينفك عن الشكر. ونظرًا لتلازم هذه الثلاثية وتكاملها، فإن بديع الزمان النورسي كثيرًا ما يتحدث عنها في سياق واحد عاطفًا بعضها على بعض.

الأثر العاشر هو الصلاح والاستقامة: وهذا أثر الآثار

وتاجها. فهو غاية التقلب في مدارج التربية والبناء، ومنتهى سلوك التزكية والارتقاء، ولا يصل إلى هذا المقام إلا الصالحون الأتقياء، الذين تذوقوا حلاوة التربية النبوية وهديه الراشد، فانخرطوا في سلك مدرسته الربانية، ونهلوا من ينابيعها الصافية. يقول النورسي رحمه الله: "إن الأصفياء والأولياء الصالحين الذين بلغوا من الكمال ما بلغوا، إنما كان بتربيته السامية، وبهدي شريعته الحقة، فهو مرشدهم وسيدهم، لذا فهو جامع لسر كرامتهم وتحقيقاتهم العلمية وإجماعهم، إنما تمثل ركيزة لصدق أستاذتهم الطاهر وصواب دعوته".

وبعد، فهذه قطوف من روض رسائل النور لبيان علاقة العلم بالأخلاق في فكر النورسي وأثر هذه العلاقة في بناء الإنسان.

وإن الحاجة ماسة في واقعنا المعاصر إلى فقه هذه العلاقة وآثارها، وترسّم خطى منهج رسائل النور ومدرستها في تنزيل قيمها ومضامينها على الحياة... كما أن الحاجة ماسة إلى إحياء العلم القرآني الرباني، وبثّه في العقول والبيوت والمجتمعات، لنعيد البناء، ونصحح السير... وفي رسائل النور مادة خصبة صالحة لذلك.

يقول بديع الزمان النورسي في لهجته الصادقة الأمينة: "اجعلوا بيوتكم مدرسة نورية مصغرة، وموضع تلقي العلم والعرفان، كي يتربى الأولاد الذين هم ثمار تطبيق هذه السنة على الإيمان، فيكونون لكم شفعاء يوم القيامة وأبناء بررة في هذه الدنيا". ■

(*) جامعة محمد الخامس – الرباط / المغرب.

المراجع

(١) الكلمات، لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة.

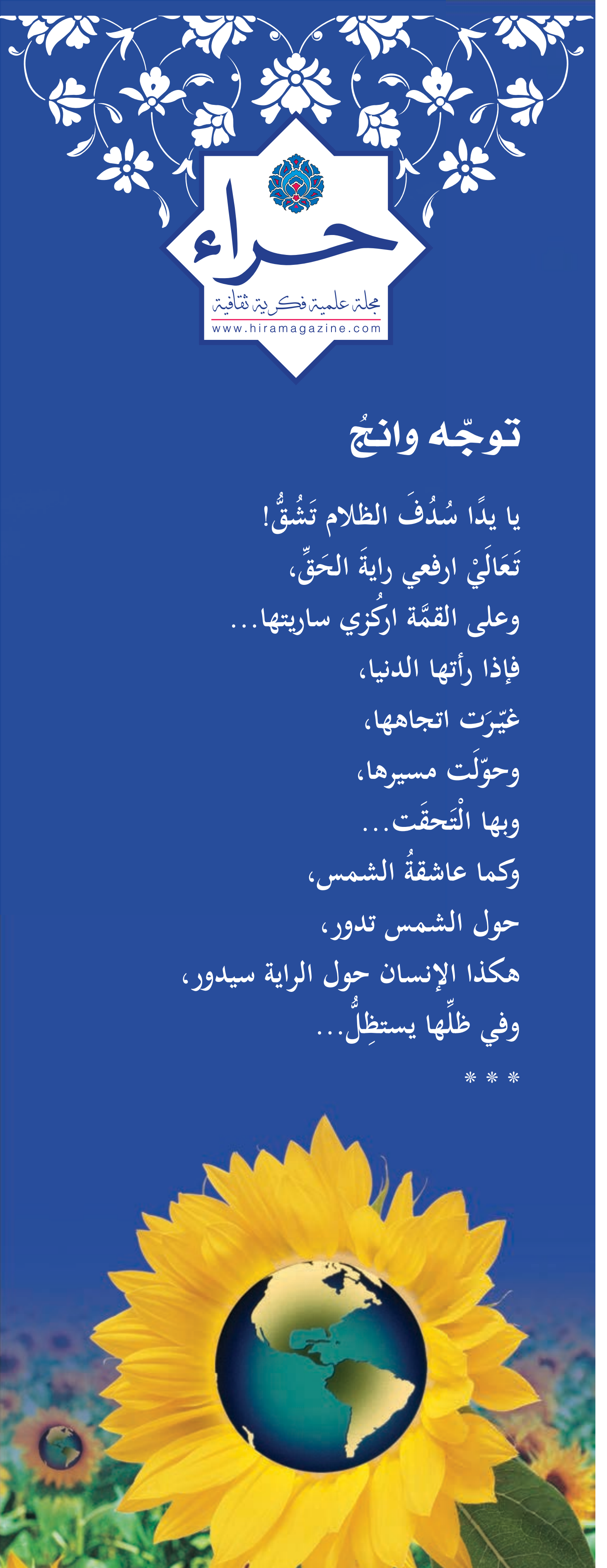
(٢) المكتوبات، لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة.

(٣) اللمعات، لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة.

(٤) الشعاعات، لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة.

(٥) الملاحق، لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة.

(٦) صيقل الإسلام، لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة.



أ.د. الشاهد البوشيخي*



كيف يصوغ الإسلام الإنسان؟

صياغة الإسلام للإنسان صياغة متميزة تنطلق من الأصل الكريم المفضل الذي فيه روح من الله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾(الحجر:٢٩)، ولذلك إذا التحم الإنسان بأصل الروح النازل من عند الله ﷻ، فَعَلَ العجب العجاب في الدنيا. روح القرآن: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾(الشورى:٥٢)، هذه الصياغة لها أهداف كبرى تسعى لتحقيقها، تنطلق من الأصل المكرم، ثم تحول بينه وبين أن يتدنى وأن يتدسى كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۞ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۞ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾(التين:٤-٦)؛ لا يدرك هذا الانسفال المؤمنين ولا يردون إلى أسفل سافلين.

وانطلاقًا من هذا الأساس ومن أساس الخلق، يمكن حصر هذه الصياغة في ثلاث أهداف كبرى وهي:

تحرير الإنسان من عبودية غير الله

تحرير الإنسان من عبودية العباد ومن عبودية الطاغوت. ولكن الله ﷻ أراد ألا يَعبُد هذا الإنسانُ إلا الذي خلَق هذا

الإنسانَ، وبغير ذلك لن يستقيم أمره. إن تحرير الإنسان من عبودية غير الله، وتعبيده لله ﷻ وحده، هو الأساس الذي نزل بـه جميـع ما نزل من الكتاب قبل، وجاء به جميع من جاء من الرسل قبـل: ﴿وَلَقَـدْ بَعَثْنَا فِـي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُـولاً أَنِ اُعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُـوا الطَّاغُوتَ﴾(النحل:٣٦)، والطاغوت هو كل ما عبد من دون الله ﷻ.

هذه الصياغة الإسـلامية للإنسـان المكرّم جاءت لتحقق هذا الهدف الأول عبر تاريخها الطويل، من أول رسـالة حتى آخـر رسـالة. وكل تلك الرسـالات هي رسـالات إسـلامية، وإنمـا شـاع الاصطـلاح الأخيـر الـذي هـو الإسـلام، عنوانًا للرسـالة الخاتمة باعتبارها كمـال الدين وتمام النعمة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْـتُ لَكُـمْ دِينَكُـمْ وَأَتْمَمْـتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِـي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْـلاَمَ دِينًا﴾(المائدة:٣)، ولم يكن تمام النعمة على أمة محمد ﷺ فقـط، وإنمـا كان على جميع الأمم السـابقة واللاحقة. إن الهـدف واضـح في الآيـة الكريمة، بل جعلته أسـاس الخلق: ﴿وَمَـا خَلَقْـتُ الْجِـنَّ وَالإِنْـسَ إِلاَّ لِيَعْبُـدُونِ ۞ مَا أُرِيـدُ مِنْهُمْ مِـنْ رِزْقٍ وَمَـا أُرِيـدُ أَنْ يُطْعِمُونِ﴾(الذاريـات:٥٦-٥٧)؛ خلقهم الله ليعبـدوه وحـده. وإن ظهر في الآيـة الكريمة أنهـا غاية، فهي فـي الحقيقـة وسـيلة أيضًـا لسـعادة هذا الإنسـان فـي الدنيا: ﴿يَـا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُـدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۞ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًـا وَالسَّـمَاءَ بِنَاءً وَأَنْـزَلَ مِنَ السَّـمَاءِ مَـاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَـرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا لِلهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(البقرة:٢١-٢٢). فكل من التقوى والعبادة وممارسة شعائر الله تؤدي إلى الفلاح: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُـدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُـمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(لقمان:٥). الفلاح في الدنيـا والآخـرة هو الهدف من تلـك العبادة، أي إسـعاد هذا الإنسـان، وإلا فـالله ﷻ ليس بحاجـة إلى هذا الإنسـان وإلى عبادتـه: ﴿لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَـا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾(الحج:٣٧)، ﴿وَاللهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾(محمد:٣٨).

هداية الإنسان

هداية الإنسان هي نتيجة حتمية للهدف الأول، إذ الهداية فيها هدايـة الإرشـاد والدلالة وهذه سـابقة، ولكـن هدايـة التوفيق هـي التي نعني، وهـي التي يطلبها المؤمـن كل يوم، بل أجبر على طلبها كل يوم سبعة عشر مرة: ﴿اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ صِـرَاطَ الَّذِيـنَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِـمْ غَيْرِ الْمَغْضُـوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾(الفاتحة:٦-٧). نزلت الرسـالات من أجل هذه الهداية، ومـن أجلها جاء هـذا الدين، ومن أجلها نزل القرآن: ﴿شَـهْرُ رَمَضَـانَ الَّـذِي أُنْـزِلَ فِيـهِ الْقُـرْآنُ هُـدًى لِلنَّاسِ﴾(البقـرة:١٨٥)، ﴿الـم ۞ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيـهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾(البقرة:١-٢)؛ فهـو هـدى للنـاس وللمومنيـن والمتقين، إنه محـض هدى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾(الإسـراء:٩). إن الإنسـان يواجـه فـي كل لحظة غيبًا لا يدري ما هـو مقبل عليه؛ إنه في كل لحظة محاط من أمامه وخلفه وفوقه بمخلوقات لا يعرف عنهـا شـيئًا، لذلك يحتـاج إلى منهج يأخذ بيـده ليعرف كيف يدبر أمر نفسه وأمر من يحيط به، ويعرف كيف يدبر أمر جميع ما اسـتخلف عليه: ﴿أَوَمَـنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِـي بِهِ﴾(الأنعام:١٢٢)، ومن شـأن النور أن يكشـف للإنسـان الطريـق، وإن القـرآن والإسـلام وهـذه الرسـالات كلها نور: ﴿قَـدْ جَاءَكُـمْ مِـنَ اللهِ نُورٌ﴾(المائـدة:١٥)، ﴿فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُـولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾(التغابن:٨). فمهمة النور أن يكشـف الأشياء على حقائقها، ويسهل للإنسان أن يبصر الصراط المستقيم.

قد يعطيك الإنسـان معلومات كثيـرة، ولكن تنقضي تلك المعلومات؛ قد يأتيك ظرف يواجهك فيه أمر لا تجد معلومة ترشـدك إلـى مـا ينبغي في ذلـك الأمـر... ولكـن إذا أعطاك هـذا الإنسـان منهجًا للسـير وطريقة للسـلوك وتدبيـر الأمر، فإنـك تسـتطيع مواجهة كل جديد، وتسـتطيع -بـإذن الله- إذا تدبرت الهدى النازل من عند الله، أن تفتي نفسك والناس في النـوازل الطارئـة لمـا يعرض ولم يكن له حكم سـابق، إن لم يكن ذلك ممكنًا بالنسـبة للفرد، فهو ممكن بالنسبة للجماعة. وهـذه الصياغة ليسـت للأفـراد فقط، بل هي للجميع حسـب الصور التطبيقية التي مرت بها؛ بالنسبة لآدم ﵇ كانت صورة فرديـة، ولكن بالنسـبة للأمـم اللاحقة كانـت صياغات للأمم نفسها. وها نحن نرى الأمة الخاتمة أمة رسول الله ﷺ تخاطَب جملـة في صورة أمة، وصيغت صياغة عامـة: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾(آل عمران:١١٠) بالبناء للمجهول، أي مخرجها هو الله ﷻ. فيستطيع الإنسان بواسطة هاته النقطة المنهجية أن يواجـه ما يجد، والذي يعطيـك توجيهًا منهجيًّا خير من الذي يعطيـك معلومات كثيرة تنقضي في ظرف معين ولا تسـتطيع أن تواجه ما يطرأ ويجد. فالدين -أساسًـا- عبارة عن صراط، وعـن طريـق، وعن منهج، وعن هـدى... ولذلك كان الهدف الأول من هاته الصياغة أن تحصل هاته الهداية للإنسان.

إقامة القسط

يدخـل هـذا الهـدف ضمن الهـدف الكبيـر الذي هـو إخراج الناس من الظلمات إلى النور، أي إقامة القسط: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾(الحديد:٢٥)؛ قضية القسـط في التصور الإسـلامي أو فـي الصياغة الإسـلامية، قضية جوهرية تظهر فـي الفرد وفي الجماعة وفي الأمة وفي النوع الإنساني، لأنه لم يطالب بهاته الصياغة أن يقسط إلى نفسه أو إلى أهله فقط، أو إلى المسلمين فقـط، بل أُمـر أن يكون قوامًا بالقسـط: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا﴾(النساء:١٣٥). فالله ﷻ أمر بالقسـط: ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾(الحديد:٢٥)، ومجتمع القسـط، ودنيا القسـط، وأمة القسـط، هي التي أريد مـن القرآن أن يصوغها وقد صاغها فعلاً زمن رسـول الله ﷺ. وبأثـر ذلك القسـط الـذي كان، وبأثر ذلك القسـط الذي أقيم بيـن الناس، أَمِـن تحت ظله اليهـودي والنصراني، والضعيف والقوي، واليتيم والعاجز والمحروم... كلٌّ وصله حقه بالعدل وبالقسطاس المستقيم.

ومـن أوائل ما اهتم به هـذا الدين، إكرام هؤلاء الضعاف، واعتبـر أن مـن لـم يهتم بهـؤلاء الضعاف، هـو متخلق بخلق الكفـار وبخلـق المكذبيـن بالديـن: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۞ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۞ وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾(الماعون:١-٣)، ﴿كَلاَّ بَل لاَ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ۞ وَلاَ تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾(الفجر:١٧-١٨)... هاته الطبقات الضعيفـة مـن النـاس، حقهـا مكفـول علـى وجهـه الصحيح الكامل في مجتمع القسـط. وفي خواتم سـورة المزمل يقول الله ﷻ: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾(المزمل:٢٠). مجتمع القسـط هنا صُنف إلى أصناف ثلاثة: صنـفٌ منتج يقـوم بعملية الإنتـاج والإدارة والتسـيير بجميع أشـكالها وألوانهـا، وهـذا القسـم هو الـذي يغذي القسـمين الآخرين ويقوم بشـؤونهما؛ قسـم يقاتل في سبيل الله ويحمل لـواء هاته الدعـوة إلى من لم تبلغه، ويبذل نفسـه وماله -عن طواعيـة واختيـار ورضى كامل- لإبلاغ ديـن الله ﷻ وإيصال رحمة الله إلى عباده. وقسـم هم هؤلاء المرضى بجميع أنواع الأمـراض المزمنة والمؤقتـة، كالفقر أو آفة من الآفات... كل ذلـك حقه مكفول وسـط هذا المجتمع، أي مجتمع القسـط. إنه لم يصغ الإنسان على القسط فقط في دائرة المسلمين، بل أريـد منه وأريد له أن يقوم بالقسـط مطلقًا: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾(الإسراء:١٠٥).

هـذه الأهداف الثلاثـة للصياغـة الإسـلامية، كلها تدخل ضمن هدف كبير يعبر عنه القرآن بعبارة جامعة يدخل ضمنها هـذا وغيـر هذا، هي عبـارة "إخراج الناس مـن الظلمات إلى النـور": ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۞ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ﴾(المائدة:١٥-١٦).

فـي مقولـة ربعي بـن عامر ﷺ المشـهورة: "جئنـا لنخرج النـاس مـن عبادة العبـاد إلى عبـادة رب العبـاد"؛ فهذه ظلمة الشـرك وظلمـة الكفـر، وهـي الظلمـة وهـي الظلـم الأكبر: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(لقمان:١٣)، هي الظلم الظالم والظلمة الظالمة. والظلمة الثانية: "ونخرج الناس من جور الأديان إلى عدل الإسلام"؛ وهذا هدف القسط. والواقع أنه لا يوجد دين نـزل من عند الله ﷻ غير الإسـلام. فـلا يوجد في دين الله ﷻ جـور، فالله حرم الظلم على نفسـه وجعله محرمًـا بين عباده: "إنـي حرمـت الظلـم على نفسـي وجعلتـه بينكـم محرمًا فلا تظالموا" (رواه مسلم). والظلمة الثالثة التي أشـار إليها ربعي بن عامر ﷺ: "ومن ضيق الدنيا إلى سـعة الآخرة" حقًّا إنها ظلمة الجهل. إن الرؤية الكونية للمسلم البسيط، أعظم من رؤية أي كافـر على الإطـلاق: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۞ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾(النجم:٢٩-٣٠). فالمسـلم يـرى في الدنيا أفقًا رحبًا، لأنـه يعلم بإيمانه بالله ﷻ أن الله يـراه وإن لـم يكـن هو يـراه، ويعلم أن هاتـه الدنيا إنما هـي مقدمـة صغيرة لعالم لا نهاية له. فهذا الأفق الكبير البعيد المدى عِلمٌ خاص لا سبيل للكافر إليه، كما أن المسلم بإيمانه بالملائكـة يصير -أيضًا- عالمًا بكائنات أخرى ينضبط بإيمانه بهـا، ولها تأثير في سـلوكه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ۞ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۞ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(ق:١٦-١٨)؛ فهو جاهز مسـتعد كل الاسـتعداد، إنه يـرى ما لا يُرى، ويحس بما لا يُحَس بسـبب إيمانـه فقط، يرى نفسـه أيضًـا ممتدًّا امتـدادًا تاريخيًّا، له صلة

بجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهو خاتم للأمم السابقة... فرؤيته للتاريخ كذلك بعيدة وعميقة جدًّا، إذا وصل الناس في رؤيتهم إلى القرد، فإنه يصل إلى آدم عليه السلام، بل حتى حين كان آدم مجرد خبر وتصميم: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(البقرة:٣٠)، فآدم عليه السلام وُجد فكرة وتصميمًا ووظيفةً قبل أن يوجد جسدًا.

إن المسلم بمحض علمه وإيمانه، يصير أوسع أفقًا وأبعد نظرًا من جميع العلماء الملحدين، لأن علم الملحد هو علم قاصر على المحسوسات، بينما علم المؤمن يتعدى ذلك ويتضمنه ويجب أن يتضمنه. وذلك الذي يحس هو العلم وهو الغيب، والغيب هو الأساس في الشهادة، فمن غاب عنه الغيب فهو الجاهل الحق: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾(الزمر:٦٤)؛ وهذا الإخراج من الظلمات إلى النور، هو من أهداف هذه الصياغة.

وسائل الصياغة الإسلامية

أ- التلاوة والتعليم: أما وسائل هاته الصياغة فهي كثيرة في القرآن المبارك، لأن هذا الدين هو -أساسًا- في كتاب الله عز وجل، وكتاب الله ما فرط فيه من شيء، إذ تطرق لكل شيء... وكل ما في كتاب الله عز وجل هو وسيلة لصياغة الإنسان في الإسلام فردًا أو جماعة، مجتمعًا أو دولة. ولكن ننظر فقط في الوسائل التي نص عليها نصًّا حين أمر رسول الله ﷺ ليقوم بهذه الصياغة، فذكر لنا من تلك الوسائل الكبرى دعوة إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾(البقرة:١٢٩). فالتلاوة والتعليم هي الوسيلة الأولى، لأن هذا الحق النازل من عند الله عز وجل، والذي هو بمثابة رسالة من رب الملك خالق المخلوقات إلى هذا الإنسان بالتحديد من جهة كونه خليفة، فعليه عهد وميثاق أن يسير فيما استخلف عليه وفق ميثاق الخلافة وعهد الخلافة: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾(الأعراف:١٧٢)، ثم بعد آدم: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(البقرة:٣٨)؛ ذلك عهد الله إلى أبناء آدم، فمن صار وفق العهد وطبقه، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وذلك العهد بمثابة رسالة نزلت من عند الله على رسولٍ يبلغها إلى أبناء آدم. إذا لم نعلم مضمون الرسالة فهل يمكن أن نطبق الرسالة؟ لا يمكن، إنها لجريمة كبرى أن يحال بين الناس وبين فهم القرآن، وتلاوة القرآن ومعرفة المقصود بالقرآن، والحيلولة لا تكون بمنعهم جبرًا، فقد تكون بوسائل متعددة؛ ومنها ألا يقوم التعليم على تعليم القرآن كما كان أول مرة، فليس لدينا شيء نحرص عليه نحن الذين يراد أن يصاغوا وأن يصوغوا أيضًا... الذين صيغوا على أساس الإسلام وأريد منهم أن يصيغوا الناس كذلك، لأنها أمة أخرجت للناس، كيف يمكنهم القيام بهاته الوظيفة بدون أن يعلموا القرآن! إن القرآن هو المعلومة الأولى والأساس، قبل أي قراءة بـ"اسم الله" لا توجد قراءة أخرى، لذا يجب على هذا الأمر أن ينزل منزله، وأن يوضع في المكان اللائق به.

إذن، أول نقطة في الوسائل هي التعليم. إن الرسالة النازلة من عند الله عز وجل، إذا لم نُعلم المقصود بها ولم نعلم الكيفية التطبيقية لها وهو تعليم الكتاب والحكمة، فسوف تبقى المهمة ناقصة؛ والحكمة كما شرحها العلماء هنا بجانب الكتاب، هي السنة وهي الكيفية التي نفذ بها رسول الله ﷺ ذلك الكتاب، أو ينبغي أن ينفذ ذلك الكتاب، كل ذلك يجب تعليمه. وهذا الكتاب بطبيعته، لا يفضي بسره إلى الذي ألقاه في خزانة رأسه، إنما يلقي بسره لمن آمن به واتبع هداه، أما الذي لم يتبع هداه فلا سبيل له إلى الاستفادة من القرآن: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾(فصلت:٤٤)، و"ليس الإيمان بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل" (رواه الديلمي)... آمنوا وعملوا، آمنوا بما نزل على محمد ثم عملوا كما عمل محمد ﷺ. وهكذا، بمجرد أن يسلم المسلم أمام رسول الله ﷺ فإنه يقرئه القرآن ويعلمه المراد به وكيفية تنفيذ ما فيه، أي يفقهه في الدين: "مَن يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين" (رواه البخاري)؛ هذا التفقيه هو الوسيلة الأساس، والتعليم هو الذي على عاتقه هذا الأمر.

ومن بعد ذلك يأتي ما يسمى اليوم بـ"الإعلام" بجميع وسائله، ويسمى بـ"الوسائل العامة" من جمعيات تنشر الخير وتعلمه للناس، والصحف والتلفزيون والإذاعات والمحاضرات و الندوات... هي وسائل لتعليم وتعميم الخير. وكل الكائنات -كما جاء في الحديث- تدعو لمعلِّم الناس الخيرَ، لأن بتعليم الناس الخير يُرحم الناس. وهذا الهدى شبهه رسول الله ﷺ بالغيث: "مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضًا، فكان منها أرضٌ طيبة -وعند مسلم نقية- قبلت الماء، فأنبتت العشب الكثير"

(رواه البخاري)، ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾(الشورى:٢٨). بماء القرآن تنشر الرحمة في القلوب والجوارح والمعاملات وفي كل مجال، وتصل إلى بقية العالمين: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(الأنبياء:١٠٧). غاية القرآن الرحمة، ونزل رحمة، وبالرحمة نبتدئه "بسم الله الرحمن الرحيم"، فنزوله رحمة من الله الرحمن الرحيم، والقصد منه أن يرحم به الله ﷻ، ولذلك يجب الدفع في هذا المجال، مجالِ التفقيه والتعليم.

ب– التزكية والتطهير: وهي تابعة للأولى، لأن الإنسان إذا علم، ذهب للممارسة، وعند الممارسة هناك جانب باطن لا يُرى يؤثر فيما يُرى: "ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب" (رواه البخاري)، واهتمام الإسلام بصلاح هذا القلب اهتمام كبير، وحرصه على أن يسلم القلب من المرض حرص كبير. ولذلك يتتبع كل المؤثرات على هذا القلب من المعاصي الخارجية؛ فيمنع العين أن تنظر إلى غير ما يرضي الله، ويمنع السمع أن يتقبل غير ما يرضي الله، ويمنع الرِّجل أن تذهب إلى غير ما يرضي الله، ويمنع اليد أن تفعل غير ما يرضي الله، ويمنع كل ما يحيط بالعبد من مال... كل ذلك يمنع ما لا يرضي الله، لأن أثره في القلب، فتنكث فيه بكل سيئة نكتة سوداء، ومن ثم يتكون الران على القلب حتى يصل الأمر إلى أن يطبع على القلب، والعكس بالعكس. فالحواس سبل للإتيان بالنور، أي بنور الحسنات إلى القلب، فيزداد القلب بياضًا حتى يصل إلى درجة لا تعود فتنة تضره بعدُ أبدًا.

الإسلام في صياغته للإنسان، يحرص على أن يسلم هذا القلب: ﴿لِلهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾(البقرة:٢٨٤)، بسبب خاطر السوء تنبت النباتات، فمن القلب يبتدئ نبات السيئة ويبتدئ نبات الحسنة، ولذلك كان الجزاء والثواب العظيم على من نوى حسنة وإن لم يفعلها، تشجيعًا لهذا الإنسان على فعل الحسنات. التزكية تكون لهذا القلب أولاً، والتطهير يتجه إليه بكل المطهرات من كتاب الله ﷻ، من صيام وقيام وصدقة... ثم تكون التزكية ترشيدًا للسلوك، وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يكلّفون بالأعمال وتصدر منهم الأقوال في مجالس رسول الله ﷺ وعلى سمعه وعلى بصره فيُقرّ ما يقر وينفي ما ينفي، وإنما ذلك من أجل تزكيتهم لتنمية ذلك الأصل الخيّر؛ أصل الفطرة: "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه" (رواه مسلم)؛ أبواه يجعلانه محافظًا على إسلامه، لأن الإسلام هو الفطرة الأصل: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾(الروم:٣٠). فالتزكية هي المحافظة على ذلك الأصل وتنمية له في صورة هذا الخريج من مدرسة الإسلام، فيها جانب إرادي، وأصلها من فضل الله: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾(النور:٢١)، ونُسبت للبشر في قوله ﷻ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾(الشمس:٧-١٠). فالتزكية وسيلة من وسائل رسول الله ﷺ ينبغي الحرص عليها، وورثة الأنبياء هم العلماء الذين للأسف يقلون يومًا عن يوم. العالم الوارث، هو العالم العامل بميراث رسول الله ﷺ، وهو الذي يمكن أن ينفخ روحًا في المزكى والمتعلم، وهو الذي يمكن أن يؤثر وينير، لأنه هو أولاً قد تأثر وتنور بسراج النبوة وبكتاب الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۞ وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾(الأحزاب:٤٥-٤٦).

ج– الحكم بين الناس بما أرانا الله: وهي وسيلة ثالثة عظيمة فعلها رسول الله ﷺ وطلب الله منه فعلها، وهدفٌ من الأهداف لا سبيل إلى تحقيقه بغيرها هو المشار إليه في قوله ﷻ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ﴾(النساء:١٠٥). هذا الحكم بين الناس بما أرانا الله في كتابه وسنة نبيه ﷺ هو السبيل الوحيد لإقامة القسط.

هذه الأهداف وهذه الوسائل، إذا مورست فإنها تكفل لنا خريجين من طراز خاص من مدرسة الصياغة الإسلامية... وقد أشار حديث جبريل عليه السلام إلى ثلاثة مستويات من هؤلاء الخريجين: مستوى المسلم، ومستوى المؤمن، ومستوى المحسن، والدين اشتمل على كل هذا؛ على الإسلام، وعلى الإيمان، وعلى الإحسان، وما ذكر في الحديث هو عبارة عن وسائل لإنتاج هذه النوعيات... لإنتاج المسلم نحتاج إلى ممارسة أركان الإسلام على وجهها الصحيح، ولإنتاج المؤمن نحتاج إلى ممارسة أركان الإيمان على وجهها الصحيح، ولإنتاج المحسن نحتاج إلى أن نعبد الله كأننا نراه فإن لم نكن نراه فإنه يرانا. ■

(*) الأمين العام لمؤسسة البحوث والدراسات العلمية (مبدع) / المغرب.

د. محمد جكيب*



سلطة الكلمة وقوتها -٢
الأدب في ظل البيان

الأدب نشاط إنساني يولد مع الإنسان، ولكي يكـون جميلاً قويًّا مؤثرًا خالدًا، يتوجب عليه الاسترشاد بالبيان الذي خطت معالم خريطته مفصلة في الكون والوجود، وأنزلت مرتكزاته على محمد ﷺ في القرآن الكريم. وبعبارة أخرى، إن الأدب لا يستحق صفة الأدبية إلا في ظل "البيان"، وذلك باقتران دقة الوسيلة والأداة والكلمـة[1] فـي إطارهـا العام بالبيـان في مستـواه الثاني، لأن الكلمة إذا لم تتطلع إلى أن تكون في مستـوى البيان الحقيقي وتجتهد لأجل ذلك، فستكون مجرد زيف لا يلبث بريقها أن يبهت ويعتريه الصدأ.

فهـؤلاء متأكـدون أن أرواحهم إذا لم تتشـرب روح البيان فإن حركيتهم ستظل مفتقرة إلى النضج والانسجام، ولن ترقى أفعالهـم ولا أقوالهـم فـي مقامـات الاكتمال، وسـتظل بعيدة عـن التناغـم والانتظام في دائرة البيـان الكلي حيث يأخذ كل عنصـر مكانه في جو مـن التوازن والتناسـق. وبعبارة أخرى، إذا افتقـرت الأفعـال والأقـوال لروح البيان فلـن تجد مكانها الطبيعي والمنطقي ضمن سلسلة البيان الكلي، بل إن وجودها بقـرب العناصر الأخرى التي حصلت مشـروعية الدخول في دائـرة البيـان، يصيـر عنصرًا مزعجًـا وحالة مرضيـة، بل ورمًا خبيثًا يتوجب بتره.

إن مظاهر التفاعل مع البيان تتعدد، وسبل محاكاته تتنوع بحسب مستويات التفاعل مع هذا البيان باعتباره إطارًا عامًّا يحدد العلاقة، ويبني المنهج ويرسم الجادة وفنون القول على وجه الخصوص، التي توظف الكلمة بمفهومها اللغوي أهم المجالات التي تحتاج إلى استحضار مفهوم البيان، بل هي أهم المكونات المرتبطة بالإنسان ارتباطًا مباشرًا حاجةً إلى التفاعل مع البيان واستحضاره.

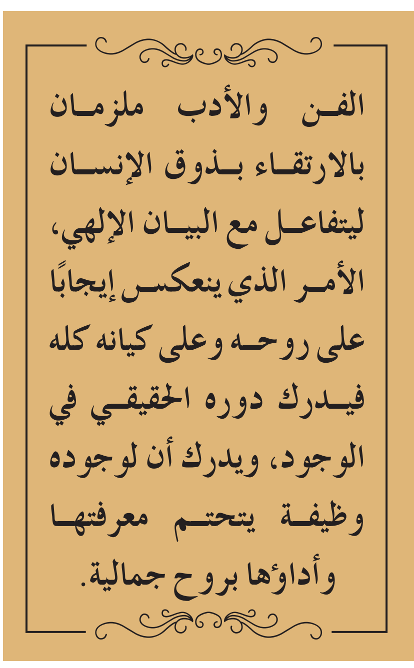
ينقسم الأدب إلى قسمين كبيرين يعكسان تلك العلاقة الأزلية التي يتصارع فيها الخير مع الشر، أو تتنازع فيها قوى الخير مع قوى الشيطان؛ ففي الوقت الذي تسعى فيها قوى الخير إلى ربط صلة الفن والأدب بالبيان وحقائقه، تعمل الأخرى على إفساد العلاقة الأولى.

لقد ضل الصنف الأخير الطريق، وتوقفت بوصلته منذ خلق الله آدم عليه السلام، وأمره الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر فطرد من رحمة الله، وأنظره الله إلى يوم يبعثون... ولذلك يجلس الشيطان للإنسان في طريق العودة إلى المكان الذي أُخرج منه عندما خالف آدم وزوجه حواء أمْرَ الله وأكلا من الشجرة المحرمة. ومنذ ذلك الحين يعيش الإنسان فصول معركة لا تنتهي من أجل العودة إلى هذا الفردوس، والفن والأدب في الأصل نوع من التغني بهذا الفردوس. لكن الشيطان لا يمل من إفساد اتساق كل نغمة وكل ما يقرب من البيان الكلي الذي ينير طريق العودة. وبضاعة من جندوا لهذه المهمة هي البضاعة السائدة في هذا الزمن الصعب، وهي تدعي امتلاكها شفرة الوصول إلى السعادة، ولعمري إنه مجرد وهم ليس غير.

سبل الارتقاء في مقامات الوصول عديدة، ومنها الارتباط بالروح والوجدان والجوارح بأمنية العودة إلى فردوس مفقود، من خلال لحن جميل متوازن، أو نص اختمر طويلا في رحم وَلّادة حتى اكتملت معالمه واجتمعت محاسنه، ليولد بعد مخاض ولادة طبيعية، وليس ولادة قيصرية.

المخاض العسير وسهر الليالي الطوال ومعاناة تحقيق نشوة الاكتمال هذه، هي مكونات الأدب الذي يدور في دائرة البيان المطلق. وبعبارة أخرى، إنه البحث عن الكمال، بل هو البحث المستمر من أجل الوصول إلى ملامسة حقيقته. فلكل أديب نموذج فردوسي مفقود يبحث عنه بما يراه مناسبًا لذلك، ولذلك كان الأدب الرفيع على مر العصور، معاناة أليمة وعذابًا مريرًا ومخاضًا عسيرًا.

على هذا المنهج صار فحول الكلمة من أمتنا عبر مختلف العصور والأزمنة، بعد أن اختط كل فحل لنفسه في دائرة هذا المنهج سبيلاً خاصًّا يميزه، وأسلوبًا يطبع مخاض نصه، ومعاناة تختم إبداعه... فالحلاج وابن عربي مثلاً في بحثهما عن الحقيقة أدركا بآدميتهما استحالة الإمساك بكل خيوط البيان المطلق، لكنهما أصرا -كما أصر غيرهما- على البقاء في دائرة المعاناة... فكل مقام يصلونه، يمثل بداية السير إلى مقام آخر لتبدأ الرحلة من جديد. فأما الحلاج فقد حلق ولم ينزل، وأما ابن عربي فظل قلبه متعلقًا بالسماء هائمًا في المظاهر البيانية التي تجود بها، وظلت روحه مشرئبة هائمة في الملكوت، لكن على علو منخفض، ولم يتقدم مخافة الاحتراق.


الفن والأدب ملزمان بالارتقاء بذوق الإنسان ليتفاعل مع البيان الإلهي، الأمر الذي ينعكس إيجابًا على روحه وعلى كيانه كله فيدرك دوره الحقيقي في الوجود، ويدرك أن لوجوده وظيفة يتحتم معرفتها وأداؤها بروح جمالية.

ولذلك فالأدب في أصل وجوده رحلة بحث طويلة، وللأستاذ فتح الله كولن رأي في هذا الباب مضمونه أن الأدب مهما بلغ من القوة الفنية والعمق الجمالي والقدرة على التأثير، إذا لم يكن مؤسسًا على الخطاب الإلهي ولم يستنر بنور مملكته، يعتبر جماله جمالاً نسبيًّا، لأن هذا الجمال يفتقر إلى المعنى الحقيقي للجمال، بل هو مجرد إحساس موهوم.

إن التجربة الأدبية بهذا المفهوم محضن تجارب كثيرة، وليس بمقدور أحد الادعاء بأنه نسيج وحده باستثناء البيان القرآني. فكل تجربة من هذا المنظور، هي في الحقيقة ملتقى تلتقي فيه تجارب الماضي بخصوصيات الحاضر؛ فتجربة اليوم تمتاز عن تجربة الماضي بما تحمله من خصوصيات الحاضر، لكنها تحمل خصوصيات الماضي كذلك ولا

يمكنها التجرد عن ذلك ولا التنكر له، بمعنى أن التجربة الأدبية لا تكتمل معالمها المركزية إلا في ظل الخطاب الإلهي وعندما تكون بوتقة يلتقي فيها ثراء الماضي وتجاربه بخصوصيات الحاضر ومتطلبات العصر، لكن برؤية تتطلع إلى المستقبل أفضل من الحاضر ومن الماضي نفسه.

الأدب في ظل الأدبية

إن مادة الأدب هي اللغة بكلماتها وآفاقها الدلالية وصورها الفنية البلاغية، لكنها الغذاء الذي يغذيها يقطف من عالم المشاعر والوجدان والأحاسيس ومن كل جميل، ولكونها كذلك، فهي تظل مرتبطة بالإنسان باعتباره كائنًا مركبًا متقلبًا بين الغموض والوضوح. وهذا هو ما يجعل الأدب أبعد ما يكون عن صرامة العلم.[٢] لكن مع ذلك يمكن تفريع الأدب إلى فرعين:

الفرع الأول هو فرع "الأدبية"، أي ما يصنع أدبية الأدب، وما يجعل من الأدب جنسًا لغويًّا يختلف كثيرًا عن اللغة التي توظف في الخطاب العادي، ولا مناص للأدبية من الموهبة إلى جانب العناصر الأخرى. فالموهبة هي الطاقة التي تشحن اللغة وتفعلها لتوجد منها شيئًا أدبيًّا، وهي منحة إلهية لا تمنح للكل وإلا تحول الأدب إلى شيء مبتذل لا يختلف عن الكلام العادي، وتقوم المعرفة بتقنيات الكتابة وسبلها ونظرياتها ومناهجها وأجناسها وأنواعها الأدبية، بمهمة مد الموهبة بالأشكال التي تستوعب اللغة المشحونة بـ"الأدبية".

إن الأدب الرفيع لا تصنعه التقنية بقدر ما يصنعه عنصر الموهبة والملَكة التي تحسن توظيف التقنيات فتختار المناسب من الأجناس، ولهذا تجد الشاعر والقاص والروائي وغير ذلك... كل واحد يعبر بالجنس الأدبي القريب منه، والجنس الذي تبدو تقنياته في متناوله، لكن القاسم المشترك هو التواصل المعنوي مع القلوب والعقول والأرواح بحسب منطلقات الأديب، وهنا تكمن وظيفة الأدبية.

وأما الفرع الثاني فيهتم بما يحيط بأحوال الإبداع الأدبي دراسة وتحليلاً وتنظيرًا ونقدًا وتأريخًا، وهذه المجالات هي المجالات الأكثر ارتباطًا بمفهوم "علم الأدب"، وسيلعب هذا المجال في المستقبل، دورًا أساسيًّا في تقريب المكونات السامية للأدب في ظل البيان ومعطياته عندما تميل الإنسانية كلها إلى العلم وحقائقه. وفي هذه المرحلة ستصبح الحاجة إلى البيان أكثر إلحاحًا من قبل، لأن من شأن حقائق العلم أن تبين حقائق الوجود وتجلي عناصره.

> **إن الأدب مهما بلغ من القوة الفنية والعمق الجمالي والقدرة على التأثير، إذا لم يكن مؤسسًا على الخطاب الإلهي ولم يستنر بنور مملكته، يعتبر جماله جمالاً نسبيًّا، لأن هذا الجمال يفتقر إلى المعنى الحقيقي للجمال، بل هو مجرد إحساس موهوم.**

بعبارة أخرى، إن الواقع العلمي سينتهي إلى الانسجام الكامل مع الخطاب القرآني ومع البيان الكلي، والأدب نفسه سينتهي ليكون تعبيرًا عن هذه الحقيقة، أي أن يشرح ويقرب البيان إلى كل العقول والأفهام، وسيخاطبهم بأسلوبه ويوظف كل التقنيات التي تفتح القلوب والأرواح بأسلوب خاص.

يؤكد الأستاذ فتح الله كولن أن سلطة الكلمة ضرورية لانتقال الأفكار من ذهن إلى آخر ومن قلب إلى آخر، والذين يحسنون استعمال هذه الواسطة من أرباب الفكر، يستطيعون جمع الأنصار للأفكار التي يريدون زرعها في القلوب والأرواح، فيصلون بأفكارهم إلى الخلود. وأما الذين لا يحسنون ذلك، ولا يستطيعونه فسيقضون أعمارهم في معاناة فكرية، ويرحلون عن الدنيا دون أن يتركوا فيها أثرًا. ولما كان العنصر الأساسي في الأدب هو المعنى، فقد وجب أن تكون الكلمات المذكورة قليلة لكن غنية بالمعاني. وهي موجودة في الكلام العميق عند المفكرين من ذوي القلوب الملهمة المحيطة بالوجود، والذين تتسع قلوبهم للوجود كله، من ذوي الخيال الواسع الذين نجحوا في أن يروا الدنيا والآخرة وجهين لحقيقة واحدة، والذين يملكون إيمانًا عميقًا وفكرًا تركيبيًّا قويًّا.[٣]

ومن أجل فهم دقيق لنظرية الفن المستظلة بظل البيان الكلي، يتوجب ربط الفن بصفة عامة والأدب على وجه الخصوص، بمقصد ووظيفة تروم إيجاد إنسان بمميزات تؤهله لإدراك أبعاد البيان في أفق إعمار الأرض والوجود، ومحاصرة أعداء الإنسان؛ "الجهل" و"الفقر" و"التفرقة".

فالفن والأدب ملزمان بالارتقاء بذوق الإنسان ليتفاعل

مع البيان الإلهي، الأمر الذي ينعكس إيجابًا على روحه وعلى كيانه كله فيدرك دوره الحقيقي في الوجود، ويدرك أن لوجوده وظيفة يتحتم معرفتها وأداؤها بروح جمالية. وبعبارة أخرى، إن يدرك الإنسان محله من البيان، فيتفاعل معه التفاعل اللازم له، بل إن العلم الذي ستنتهي إليه الإنسانية هو العلم بموقع الذات/الذوات في تفاعلها مع الوجود.

وأما محاصرة الأدب للفقر فتلمس في توسيع أفق الإنسان وفتح روحه وقلبه على العالم الفسيح وعلى الوجود في اتساعه وامتداده، ومن شأن ذلك فتح الآفاق والدخول في دائرة الإبداع بالتذوق أو بالإبداع والانطلاق، وترك المسكنة والدروشة.[٤] وبعبارة أخرى، إن ترك المسكنة يعني أن يكون الإنسان عالي الهمة كالنسر، يرتاد أعالي الجبال ولا يرضى بسفوحها ويقبل الخنوع. والفن بصفة عامة والأدب على الخصوص وبمختلف أجناسه يصنع هذا النوع الإنساني.

وأما دور الأدب في محاربة التفرقة، فتظهر من خلال استمداد الأدب مشروعية وجوده من البيان حتى يصير المنطلق الذي تنطلق منه كل الرؤى والأفكار والتصورات، وتحتكم إليه في كل ما يعرض لها أثناء المسير، وإذا استطاع شد الألباب -كما هو حال البيان المطلق- فإن توحيد نظر الجموع وتمازج الأفئدة حتى تصير كفؤاد واحد، هو المصير الأكيد. ومن شأن ذلك جعل المواقف تلتقي عند الكليات وتتوحد حول الأساسيات، وليس في ذلك أي إلغاء للخصوصيات الفردية ولا الجماعية، لأن هذه الخصوصيات مصدر من مصادر إثراء التجربة.

إن مراد البيان الكلي هو أن يكون الناس على إيقاع واحد ووفق نبرة واحدة، ولا شك في أن سبل الوصول إلى ذلك متعددة ومتنوعة، لكن الفن بصفة عامة والأدب على الخصوص وبمختلف أجناسه ومختلف أنواعه الموجودة، وحتى تلك التي ستظهر في المستقبل، تستطيع توحيد الأرواح على إيقاع واحد.

إن من تعلقت أرواحهم وقلوبهم وأفئدتهم بالبيان، تنتظرهم مهمة كبيرة وعظيمة... فالذين اختاروا الأدب لأداء مهمتهم، يتوجب على أقلامهم أن تصنع من الكلام سبيلاً ينشر الخير والبشائر في كل العوالم المعنوية والمادية دون تمييز بينهما، لأن المهمة واحدة والغاية واحدة، ولأن المرمى هو أسمى مرمى يمكن للإنسان أداؤه. فالأيادي الجافة التي لم تدرك حقيقة البيان الكلي، والتي حجب غباؤها وضلال روحها عنها إدراك هذه الحقيقة، يستحيل عليها أن تكون مرشدًا إليه ودالاً عليه تعالى.[٥] وعلى هذا القلم أن يدرك بأن العالم في حاجة إليه، وأن الزمان قد دار دورته، وأن الأرض سيرثها الصالحون. وإذا لم يكن القلم في داخل الدائرة، فإن فراغًا قاتلاً سيحتل المكان وتعشش فيه قوى الشر، لذلك على الفن بصفة عامة وعلى الأدب بصفة خاصة، أن يسكت شبه الأقلام التي أطالت الكلام دون فائدة، والنور لم تنشر والخير لم تبلغ والعالم لم تضئ، وإسكاتها لا يكون إلا بأن تنتشر الأقلام المتوضئة في كل مكان، وفي كل قلب، وفي كل حدب وصوب، وفي الأرض والجو كله... فإذا تكلم القلم الصالح، خنست الأقلام الجوفاء وانكتم ضجيجها وغلب النور الظلام، وزدانت الأرض والسماء بنور ربها.[٦] ■

(*) جامعة شعيب الدكالي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الجديدة / المغرب.

الهوامش

[١] نعني بالكلمة هنا، كل نظام ترميزي يوظف للتعبير والتواصل كالألوان والإيقاعات الموسيقية وغيرها.

[٢] بعض النظريات الأدبية تقول بـ"علم الأدب"، متأثرة في ذلك بما تحقق في مجال العلم الطبيعي من إنجازات، وبغض النظر عما تطرحه هذه الرؤية من إشكالات معرفية، فإن القضية تحتاج إلى تأمل خاص.

[٣] انظر تفصيل هذه الرؤية في كتاب الأستاذ البيان Speech.

[٤] ترك الدروشة بالمفهوم السلبي لا بالمفهوم الإيجابي، التي تعني الخضوع لله تعالى.

[٥] مستلهم من نص الأستاذ فتح الله كولن في مؤلفه "ألوان وظلال في مرايا الوجدان": "تضرُّعُ قلم" يقول: تكلم يا قلم، واصرخ يا مداد، "يا من بالقلم أقمت! أعوذ بك أن تلمسني يد جافة، ويستخدمني عقل غبي! وروح ضال... وهبني -يا رب- إلى من إليك يكتب، وعليك يدل".

[٦] مستلهم من نص الأستاذ فتح الله كولن في مؤلفه "ألوان وظلال في مرايا الوجدان": "لسان نور" يقول: ما أكثر ما قالوا فما أناروا... وما أكثر ما تكلموا فما أضاؤوا... ثم صمتوا، وما عاد عندهم ما يقولون... تكلم أنت، فالدور دورك... فقد أظل زمانك، وأقبلت أيامك... الوجدان إليك يهفوا، والروح إليك يرنو، فتكلم وأضئ، والأنوار فأشعل... بالنور لسانك مغموس، إذا تكلم، أضاءت الدنيا، وأشرق العالم، وتولى الظلام، وصلح الإنسان.

أ.د. إدريس الخرشاف*



لغة القرآن الكريم
مفتاح العلوم التجريبية

إذا تصفحنا صفحات تاريخ أمتنا الإسلامية، وجدناه حافلاً بالمنجزات والأعمال الجليلة، نذكر منها على سبيل المثال، الحركة العقلانية التي حدثت داخل فضاء المجتمع المسلم بعدما تعرف على الكونين المقروء والمشاهد، فحدث على إثرها تحول معرفي اعتمد في أساليبه وآفاقه المعرفية على تدبر قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾(آل عمران:١٩٠).

هذا الشعار هو الذي اعتبره المسلمون -بالإضافة لشعارات أخرى- منبع الحضارات لغةً وفكرًا، إذ كان له الفضل في تحويل الساحة العربية الجرداء إلى منطقة إشعاع حضاري. كل هذا التحول كان بفضل الله تعالى، ثم بفضل توفر شرطين رئيسين:

أولهما: مرونة لغة الخطاب، والمتمثل في اللغة العربية التي كانت تُعتبر لغة المختبَر ولغة الشارع والأقوام، مما أهّلها لتكون لغة قوية ومتطورة تتميز بمسايرتها للركب الإنساني ومتطلبات الحياة المجتمعية.

ثانيهما: احتواء اللغة العربية كل المبادئ والقيم التي

ترتبط بها العلاقات الإنسانية، فانصبت جهود المسلمين على القراءة والتدبر، والنقل والترجمة، والبحث والتنقيب والترشيح، والاحتفاظ بما هو صالح ونبذ كل ما هو خارج عن المنظومة الإسلامية، والإبداع والكتابة.

فكانت المحصلة، ظهور نخبة من علماء المسلمين عملوا على تحريك عجلة التاريخ العلمي بأفكارهم، استطاعوا في مدة زمنية صغيرة تحويل الرقعة الجغرافية التي كانوا يعيشون فيها، من مساحة رملية لا تعرف سوى حرب العشائر ووأد البنات وضيق الأفق، إلى منطقة إشعاع حضاري ما تزال أيامنا الحالية تشهد بصماتهم الفكرية وتعترف بابتكاراتهم الأصيلة والرصينة.

بالإضافة لما تقدم، إذا كان علم الرياضيات يعتبر بمثابة علم الدقة، فإن عصرنا الذي نقتحمه، يظهر لنا أن هذا العلم أصبح بحاجة لإعادة النظر في كثير من المصطلحات المستخدمة فيه، على سبيل المثال مصطلح اللانهاية، والنقطة، وغيرهما.

وليس هنا من يذلل لنا الصعوبات المطروحة سوى القرآن الكريم، الذي نجده يحدد المفاهيم ويجعل المادة المعالجة أكثر تناسقًا وتجانسًا مع الفكر البشري، لأن اللغة المتداولة في القرآن الكريم هي اللغة نفسها التي وُلد بها الإنسان، ونجده يجعل الإنسان يتأقلم بسهولة مع المصطلحات العلمية المتداولة.

حركة الترجمة وقضية المصطلح

عندما نشطت الحركة الفكرية أثناء المسيرة الإسلامية، أدى ذلك إلى ظهور حركة الترجمة أيام المنصور (٧٧٥م). ولم تمضِ ستون سنة (٨٣٥م) حتى كان المأمون قد أنهى سائر الترتيبات لبناء دار الحكمة، فحدثت طفرة علمية لم يعهدها التاريخ من قبل، حيث تُرجمت كثيرٌ من نفائس الكتب العلمية.

وهنا لابد من التذكير بأن "صقلية" بـ"إيطاليا"، و"قرطبة" و"غرناطة" بـ"الأندلس"، كانت بمثابة ملتقى طرق الدارسين الذين يريدون تعلم العلوم الإسلامية المتطورة في شتى فروع المعرفة، حيث لعبتا دورًا أساسيًّا في ظهور اللغة العربية كوسيلة التخاطب في البلدان الأوروبية وحتى في البلاط "البابوي"، لأنها لغة مِطْوَاعة.

ولما وصل المسلمون إلى ما وصلوا إليه من تقدم ورفعة في الهندسة والطب، والرياضيات وعلم الفلك، والموسيقى والتفكير العلمي، كانت لغة القرآن هي لغة التخاطب والتفكير بين أفراد الأسرة الأوروبية والأسرة المسلمة العلمية.

صناعة المصطلح

إذا قمنا بقراءة سريعة للمصطلحات المتداولة بين الناس، فإننا نلاحظ استخدام بعضهم لمصطلحات قد لا تنتمي لفضائها الحقيقي. من أجل ذلك بذل المسلمون جهودًا كبيرة من أجل إخراج المصطلح بدون شوائب إغريقية أو سريانية كما هو الحال عند "الكندي" مثلاً، حيث استعمل "الكندي" ألفاظًا مثل لفظة "جرم" التي استُبدلت بلفظة "جسم"، و"طينة" التي استُبدلت بلفظة "مادة". أما المصطلح العلمي عند "الفارابي" (ت٩٥٠م)، فلقد مكّنته إمكانياته العلمية المتمثلة في معرفته بكثير من اللغات، من القيام بمقارنة بين اللغات والعلوم، ووضع تصنيفات لها في مؤلفاته، نذكر منها على سبيل المثال كتاب: "إحصاء العلوم"، حيث قام بتقسيم علم الألفاظ إلى علم الألفاظ البسيطة ووضع قوانين لها، وعلم الألفاظ المركبة، وعلم الكتابة، وعلم تصحيح القراءة.

المصطلح القرآني

يقدم لنا المصطلح القرآني جملة من المعارف المتراكمة التي تدل على مدى الدقة في استخدام اللفظ، ويضع لهذه الألفاظ بنيات لتصبح اتجاهًا فكريًّا يتعدى مجال تخصص اللفظ في الزمان والمكان.

في ميدان الفيزياء

١- الفتق: يعتبر أحد أهم المصطلحات العلمية في العصر الحديث، التي تُستعمل في مدارس التفكير التطبيقي في علم الفلك، إذ يدور النقاش حاليًّا حول وضعية الكون الأصلية وديناميته. فهناك من قال بأن الكون كان دومًا على صورته الحالية (فكرة ثبات الكون)، أما بعض علماء "الفيزياء الفلكية" (Astrophysique) الحديثة، فقد ذكروا أن الكون كان في يوم من الأيام نقطة مادية وحيدة ذات كثافة كبيرة ودرجة حرارة عالية، وفي لحظة من اللحظات انفجر الكون فأطلقوا عليه اسم "الانفجار العظيم" (Big Bang).

أما القرآن الكريم، فيستخدم لفظة "الفتق" وهو مصطلح له دلالة واضحة المعالم. والسبب في ذلك يرجع للوضعية التي تلي المصطلح "الحدث"؛ ففي الوقت الذي يعبّر الإنسان عن الظاهرة الكونية بأنها تمثّل حادثة انفجار وقعت في الكون

-حسب تعبير علماء الفيزياء الفلكية- نجد القرآن الكريم يعبّر عنها بمصطلح "الفتق"، وإذا قارنا بين المصطلحَين، فإن الفرق بينهما يكمن في أن المصطلح الأول (المصطلح الإنساني) يعبّر عن الانفجار، وهذا معناه أن النتيجة ستكون الدمار والخراب.

أما المصطلح الثاني وهو المصطلح القرآني "الفتق"، فإنه يعبّر عن حادثة ستظهر على إثرها الحياة والوجود، وهذا يوافق تمامًا حقيقة ما حدث عقب الانفتاق -أي بعد بداية الكون مباشرة- كما نصت عليه الآية الكريمة: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾(الأنبياء:٣٠).

٢- الرتق: وهي اللفظة العلمية التي تدل على الاجتماع والالتحام بدل مصطلح "النقطة المادية" التي يستعملها علماء الفيزياء.

٣- الطي: لقد حقق علماء الفيزياء الكونية في السنوات العشر الأخيرة، قفزة نوعية في موضوع دراسة وجود المجال الزمني للكون الذي نعيشه، وقد أثار هذا، اهتمام الباحثين رغم تنوع مشاربهم الفكرية والمجتمعية.

ففي الوقت الذي يطلق فيه علماء الفيزياء الكونية على وضعية الكون في نهاية حياته مصطلح "الانكماش الأعظم" (Big Crunch)، فإن القرآن الكريم يستخدم مصطلح "الطي" مصداقًا لقول رب العالمين: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾(الأنبياء:١٠٤).

٤- التكوير: في الوقت الذي لا نجد فيه مصطلحًا يقابل نهاية عمر الشمس، فإن القرآن الكريم يعبّر عن وضعية الشمس في مرحلتها النهائية، بلغة بسيطة التركيب، قوية الدلالة، سهلة الفهم، حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾(التكوير:١).

٥- مرج: إذا كان علماء الفيزياء يستخدمون مصطلح "الاختلاط" في فيزياء السوائل للدلالة على اتحاد سائلين، فإن القرآن الكريم يستخدم مصطلحًا علميًّا بسيط التركيب هو مصطلح "مَرَج"، مصداقًا لقول رب العالمين: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۞ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾(الرحمن:١٩-٢٠)، لأن البحرين لا يطغى أحدهما على الآخر ويذهب بخصائصه، بل يبقى العذب عذبًا والملح ملحًا بالرغم من تلاقيهما.

> **القرآن الكريم يحدد المفاهيم، ويجعل المادة المعالجة أكثر تناسقًا وتجانسًا مع الفكر البشري، لأن اللغة المتداولة في القرآن الكريم هي اللغة نفسها التي وُلد بها الإنسان، ونجده يجعل الإنسان يتأقلم بسهولة مع المصطلحات العلمية المتداولة.**

٦- الفروج الكونية: على الرغم من الجهود المبذولة من طرف علماء الفيزياء الفلكية لمعرفة ما يدور في العالم الكوني، فإن العقل البشري ما يزال يدرس ظواهر فلكية عديدة، نذكر منها ما اصطُلح عليه أخيرًا بـ"الثقب الأسود" حسب التعبير الإنساني. ومن أجل استيعاب ذلك، ومعرفة المصطلح داخل الإطار العلمي العقلاني الصحيح، كان لابد من قراءة المصطلح من المنظورين الإنساني والقرآني.

فحسب علماء الفيزياء، نذكر منهم الباحث الإنجليزي "Richard Whait" الذي توصل في سنة ١٩٨٩م إلى فكرة مفادها، أن الثقب الأسود يأتي نتيجة فقدان الكتلة، وأن هناك نجومًا منهارة بالغة الكثافة تقوم بابتلاع ما يقترب منها. وإن كنا لا نشاطره الرأي، فإن هذا الاعتقاد بدأ يتبدد في الآونة الأخيرة (١٩٩٧-١٩٩٨م)، إذ ثبت علميًّا أن الأجسام التي تقترب من الثقب الأسود لا تنفلت منه ولو كانت سرعتها تساوي سرعة الضوء ٣٠٠٠٠٠ كم/ث.

معنى ذلك أن قوة الجاذبية عند حافة الفروج الكونية تكون كبيرة جدًّا، مما سيولد للجسم الذي جذبه الثقب الأسود سرعة تفوق بكثير سرعة الضوء. فهو من جهة يُبتلع كيفما كانت سرعته، ومن جهة أخرى فإن الجسم يُبتلع -وهذا أمر مهم- مهما كبُر حجمه.

الأمر الذي لا يعكس فكرة نجم ما تحول بعد انقضاء حياته إلى ثقب أسود -حسب ما يدّعيه بعض علماء الفيزياء الكونية- لأن جسمًا صغيرًا لا يمكن أن يبتلع جسمًا يكبره آلاف المرات.

لذلك نرى من الأنسب تبنّي المصطلح القرآني "الفروج"، أي الأبواب الكونية أو المنطقة التي تفصل بين فضائين مختلفي التكوين، كما ينص على ذلك كتابنا العزيز، حيث يقول رب العزة: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾(ق:٦).

أما امتصاص النجم عن طريق "الثقب الأسود"، فإن القرآن الكريم قد عبّر عنه بالمصطلح "هوى" مصداقًا لقوله ﷻ: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾(النجم:١)، معنى ذلك أن النجم ينطفئ نوره، ويصبح بالتالي خاضعًا للقوى الخارجية.

في ميدان الرياضيات

١- الآفاق: إذا تتبعنا أنشطة الإنسان العملية، نجد أن كثيرًا من المفاهيم التي بناها في العقود الماضية، قد أُعيد النظر فيها أو التفكير فيها. ومن بين القضايا التي نريد وضعها تحت المجهر -على سبيل المثال- ما يُصطلح عليه بـ"اللانهاية" (Infini)، الذي يعتمد عليه علماء الرياضيات في أغلب الأحيان حينما يريدون دراسة قضايا مثل؛ معرفة نهاية سلسلة حينما يأخذ المتحول فيها قيمة كبيرة. أو متوالية رياضية، أو دالة، أو ما شابه ذلك حينما يؤول المتغير فيها إلى قيمة تجعل قيمة المتوالية أو الدالة كبيرة جدًّا.

أما القرآن الكريم، فإنه ينقلنا من عالم التفكير الفلسفي إلى مجال التطبيق العملي، كما أنه يربي عقلنا على التفكير العلمي، ويدفعنا لاستعمال المصطلح المناسب والقابل للتطبيق.

في هذا المجال نستخدم مصطلح "الآفاق"، ويكون المجال الزمني وقتئذ مفتوحًا من الجهة اليمنى كما يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ﴾(التكوير:٢٣). ويعمم ذلك بقوله ﷻ: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾(فصلت:٥٣).

وعلى سبيل المثال؛ إذا أخذنا مجموعة الأعداد الطبيعية (٠, ١, ٢, ٣, ٤, ٥ ...)، فإنه لا يوجد عدد طبيعي يمكننا اعتباره أكبر عدد ممكن في مجموعة الأعداد المذكورة، كما أنه لا يوجد عدد يُنهي مجموعة الأعداد الطبيعية المذكورة آنفًا -غالبًا نصطلح عليه بالعدد اللانهائي- فيمكننا القول عندئذ؛ إن أفق مجموعة الأعداد غير موجود، أو نقول إن مجموعة الأعداد الطبيعية تمتد إلى الأفق.

٢- المكممتان "أين ما-أينما" الوجودية: يمكن قراءة ذلك في القرآن الكريم واستخدامه كمكممتين رياضيتين مصداقًا لقول رب العالمين: ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(البقرة:١١٥). و"أينما" اسم شرط جازم في محل نصب ظرف مكان متعلق بما بعده. ومعنى ذلك من الناحية الرياضية أنه مهما تكن وجهة الإنسان الزمكانية فإنه سيجد الله. ويعبّر القرآن الكريم عن ذلك وفق العلاقة الممثلة في سورة البقرة آية ١١٥: "أينما" تحلّ مكان "مهما يكن"، وكذلك لفظة "ثَمَّ" تحلّ مكان "يوجد".

٣- مجموعة المستقر: عندما نستعمل التعبير الإنساني في لغة الرياضيات، فإن المصطلح يجب أن يكون شفاف الطرح ويؤدي المعنى. لذلك نأخذ مصطلح "مجموعة الوصول" ونبدله بالمصطلح القرآني الممثل بمجموعة المستقر مصداقًا لقول رب العالمين: ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ﴾(الأنعام:٦٧).

٤- يستوي: نعلم أن مصطلح التساوي لا يمكن استخدامه في شتى المجالات، لذلك كان من الأنسب استعمال المصطلح القرآني الذي يعكس النظرة الحقيقية العلمية للمصطلح، ويتعلق الأمر بمصطلح "يستوي" مصداقًا لقوله تعالى: ﴿لاَ يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾(الحشر:٢٠).

٥- الانتماء: يمكن استخدام حرف الجر "من" للدلالة على الانتماء الكلي: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ﴾(المؤمنون:١٢).

٦- الاختيار: وهو المصطلح "أو" الذي يدل على حرف عطف للتخيير أو للتنويع: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾(البقرة:٧٤).

٧- العطف: وهو المعبّر عنه في الرياضيات بمصطلح "التقاطع"، وهذا التعبير قد يُحدث لبسًا في المعنى، لذلك نصطلح عليه في تعبيرنا الرياضي بالعطف بالواو "و": ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ۞ اللهُ الصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾(الإخلاص:١-٣).

هذا ويمكن للباحثين استخراج كثير من المصطلحات المرتبطة بقضايا إعجازية، تمكّنهم من إثبات أصالة القرآن الكريم وسنة نبيه المصطفى ﷺ وإعجازهما الخالد في الزمان والمكان. ■

(*) كلية العلوم، جامعة محمد الخامس - الرباط / المغرب.

علوم

محمد هاشم البشير*

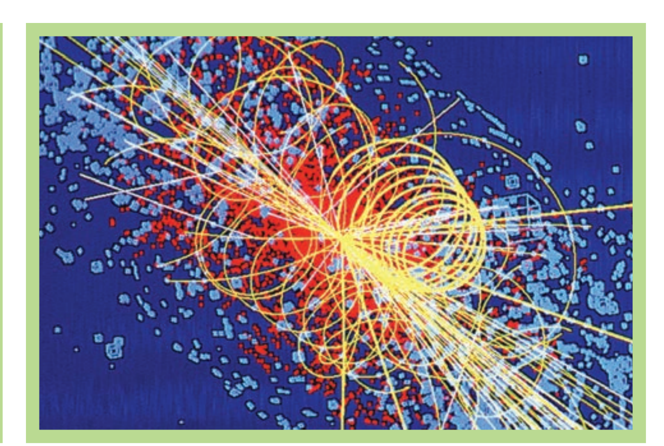


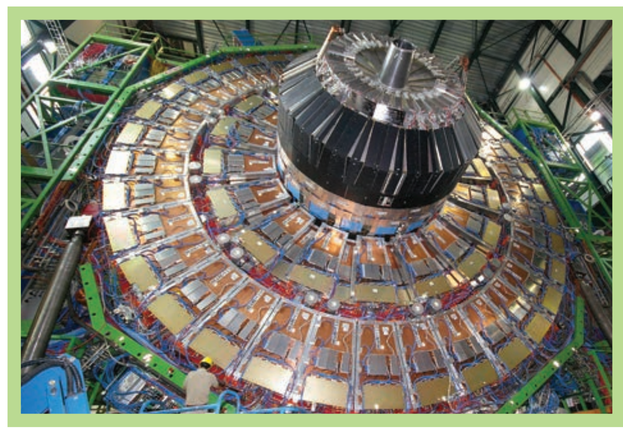
أطول مطاردة لاقتناص جسيم

في تاريخ الفيزياء

اكتشـف الفيزيائيـون حتى الآن ١٢ لبنة من لبنات بنـاء المادة، والآن بعد ٥٠ عامًا مـن البحث ربما توصلوا إلى اكتشـاف اللبنـة التي أفلتت منهم طيلة هذه السـنوات أو ما يسـمى "بوزون هيغز" في ختام العام ٢٠١١م.

فقد تناقلت الصحف خبر اكتشـاف جسـيم بعد معلومات جمعت من تجربتين، أدت إلى اكتشاف البوزون الجديد الذي صدمتني فيه تسميته بـ"الجسيم الرب"!





من هنا بدأت القصة

تبدأ قصة "جسيم هيغز" منذ العام ١٩٦٤، حيث استحوذت فكرة الجسيم المفقود على عقل الشاب "بيتر هيغز" خرج منها بحيلة رياضية بسيطة وبالغة الأهمية في نفس الوقت. ومن دون حيلة "هيغز" كانت المعادلات في فيزياء الجسيمات مملة ورتيبة، تصف كونًا عامرًا بالجسيمات حصرًا من دون كتلة. ولكن من دون كتلة لا تنشأ نجوم ولا كواكب، ولا وجود للبشر في عالم كهذا. وبحيلة "هيغز" توفرت للعلماء أداة يصلحون بها معادلاتهم، وبها تمكنوا من صياغة "النموذج المعياري" للمادة، الذي يمثل النظرة الشاملة لفيزياء اليوم. وكل ما على العلماء أن يفعلوه، هو أن يثبتوا وجود جسيم "هيغز"، فأنفقوا أكثر من ٣ مليارات يورو للبحث عن جسيم. لابد أن يكون في هذا الجسيم ما يستحق عناء البحث عنه والإنفاق عليه برغم أن كثيرًا من العلماء يرون أن نصف النتائج "مطبوخة".

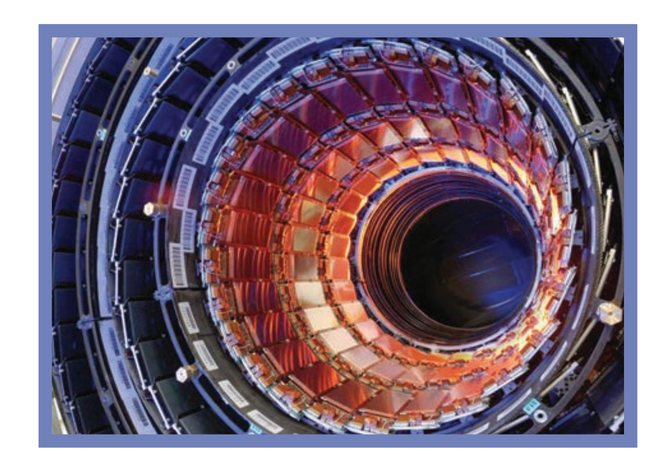
محاولات جسر الهوة بين العملي والنظري

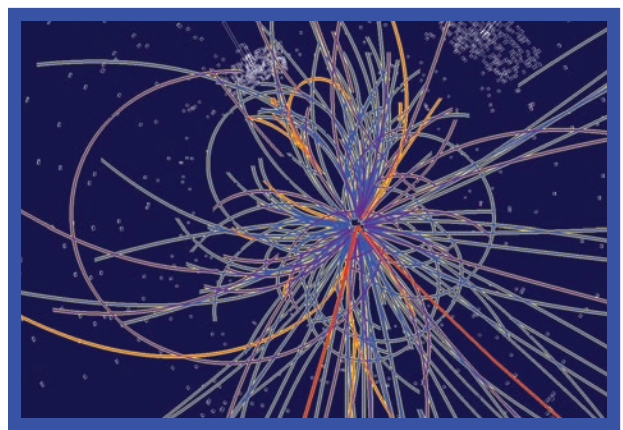
تذهب النظرية إلى أن جسيمات "هيغز" تُصنع كل دقيقة، ولكن الغالبية الساحقة منها تُفقَد بلا رجعة في وابل الجسيمات المتصادمة. ولا يتحلل إلا واحد من كل ألف جسيم "هيغز" إلى "أشعة غاما" ذات طاقة عالية، ويأمل العلماء بأن تكون هذه هي اللحظات النادرة التي يرصدون فيها وجود الجسيم. ولكن عدد مثل هذه المناسبات التي مرت عليهم، صغير، بحيث لا يقتنع الفيزيائيون بأنهم على صواب. ولكنهم مع ذلك متشجعون بحقيقة أن التجربتين الرئيستين اللتين أجراهما العلماء في مختبر المنظمة الأوروبية للأبحاث النووية، سجلتا إشارات متماثلة. ويتفق فريقا العلماء اللذان أجريا التجربتين المنفصلتين، على أن المسألة يجب أن تُحل في عام أو عامين. عكف على تحقيق هذه المهمة الجبارة ما يزيد على العشرة آلاف عالم من مختلف الاختصاصات، وبميزانية كلية وصلت إلى ٦ مليارات يورو، وضعت تحت تصرفهم من أجل إطلاق تخصص علمي ما يزال في المهد، هو فيزياء الجسيمات اللامتناهية في الصغر.

حيث تعتبر فيزياء الجزئيات بمثابة سباق المائة متر بالنسبة للعلم، فهي تجذب الأضواء وتستقطب الاهتمامات والمنافسة الشديدة، لكن تقدمها بطيء على صعيد الإنجازات والتطبيقات العملية. وهي تقوم على فيزياء النصف الأول من القرن العشرين، التي طرحت من الأسئلة النظرية أكثر مما قدمت من الإجابات الناجعة والمقنعة والمثبتة مختبريًا، حتى أن هناك هوة عميقة صارت تفصل بين الحقلين النظري والمخبري لا يمكن جسرها. فلم يتمكن العلماء سوى التعرف على ٥٪ فقط من المادة في الكون، ولابد من العثور على المفتاح السحري المتمثل بـ"بوزونات هيغز" وإلا سينهار الصرح العلمي للفيزياء المعاصرة... فقبل اقتحام المجهول للبحث عن النسبة المجهولة للمكون الكوني وهي ٩٥٪ تقريبًا، ينبغي أولاً السيطرة التامة والكاملة على الخمسة بالمائة المتكشفة حاليًا وشرحها وتفسيرها... أيًا كان، تمكن العلماء من رصد "بوزن" يعادل نحو ١٢٥ ذرة هيدروجين. ومن الجهة الأخرى، لم يكن هناك دليل ملموس على اكتشاف الجسيم، بل مؤشرات إلى وجوده، لكنها مؤشرات شيقة جدًا، كما دأب مدير المنظمة الأوروبية للأبحاث النووية "رولف هوير" على القول المرة تلو الأخرى.

إشكالية معرفة أم إشكالية منهج؟

كما قال الشيخ "الشعراوي" فـ"إن قليلاً من العلم يؤدي





إلـى الإلحـاد، كثيـرًا من العلم يـؤدي إلى الإيمـان، قليلاً من الفلسـفة يـؤدي إلـى الإلحـاد، كثيرًا من الفلسـفة يـؤدي إلى الإيمـان"، من هـذا المنطلق فإن الله ﷻ يقول: ﴿مَا أَشْـهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِـهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّيـنَ عَضُدًا﴾(الكهف:٥١). فعملية الخلـق بأبعادها الثلاثة؛ خلق الكون، وخلق الحياة، وخلق الإنسـان، هي عملية غيبية لا يمكـن للإنسـان أن يصـل فيهـا بجهـده منفردًا إلـى تصور صحيـح. والخلـق هـي عملية غيبيـة، وهدى ما أخبـر به ربنا ﷻ فـي القرآن العظيـم، والآيات في هذا الصـدد كثيرة جدًّا. وكل تصور يخلو من وحي السـماء فهـو تصور قاصر وباطل وغيـر كامـل. وقضيـة الخلق هي قضيـة يحتار فيها الإنسـان، ويحتـاج فيهـا إلى هداية ربانية حتى يصل إلى تصور صحيح. وقضية خلق الكون وخلق الحياة وخلق الإنسان، هي من أكثر القضايـا التـي أرهقت العلماء، لذلك فالإنسـان إذا انطلق في البحـث في هذه القضية بـدون هداية ربانية، فقد يضل ضلالاً بعيدًا.

إن الإشـكالية فـي البحـث عـن جسـيم "هيغـز" ليسـت إشـاكلية معرفة بقدر ما هي إشـكالية منهج. فسـؤال "كيف"، لا يطابـق سـؤال سـيدنا إبراهيـم عليه السلام لربه ﷻ: ﴿أَرِنِـي كَيْفَ تُحْيِـي الْمَوْتَـى﴾(البقرة:٢٦٠) بقدر ما هو محاولة لمعرفة الخلق، وهذا نبأ به "سـتيفن هوكنج" عندما قال بـ"أن الكون لا يحتاج إلـى خالق، فسـؤال الـ"كيف" هنا هو سـؤال فـي المنهج، أي منهج البحث عن بدء الخلق، أي ما الخطوات التي نترسّـمُها لنصل إلى هذه الحقيقة؟". ولكن كيف لنا أن نتحقق من صحة المنهـج وكفاءته، وأنه فعلاً أداة موثوقة لتقرير أسـس المعرفة اليقينيـة، وقـد يسـتتبع هـذا بأسـئلة عـن دور العقـل وطبيعته وإمكانياتـه في الاشـتغال علـى هذه المحـاور، أو عن حدود المطلق والنسبي في المعطيات التي تفدُ إلى العقل من الحس الخارجي، أو من باطنه كمعطيات فطرية أولية على قول وهو القول الحق. وهذا يعني وجود مطلقيات وثوابت مغروزة في الفكر، وأنها محددة وقليلة جدًّا، وأن إطلاق النسبية هو بذاته زعم مطلق، مما يعني أيضًا أن المطلق جزء من تكوين العقل البشري حتى وإن كابر.

الخطورة والانحراف

الخطـورة الماثلة الآن هو أننا أصبحنا نتخذ "المنهج العملي" كقائد "معصوم" للعقل البشري، ولكن وبما أن المنهج العملي معنـي بالمـادة والماثـل والمحسـوس؛ فهـو إذن مقصور في إثباتاتـه علـى ذلك، ولا يصح أن يتجاوز هذا الإطار المحدد، لأنه يعتمد على أدوات بحثية، لها طبيعة معينة تفقد مصداقيتها العلميـة أو جدواهـا إن جـاوزت هـذا الإطار. لاحـظْ هنا أن الفكـر هـو من يقررُ الإطـار، وهذا التحديد قبلـي، يعني ليس من منتجات المنهج العلمي، ومجردُ تصورنا لذلك سـيجعلنا -بديهيًّـا- مدركين بأن المنهـج العلمي لا يعدو أن يكون آلية معرفة في نطاق معين هو "المادة"، ولا يملك مقومات المحدد النهائـي للحقائـق جملة، أي أننـا يمكن أن نكتشـف "بوزون هيغـز" ونثبت وجـوده، ولكن لن يعطينـا الحقيقة الكاملة عن الخلـق. لذلـك؛ المنهـج العلمـي، أحـد أدوات العقل وليس مصـدرًا وحيـدًا للمعرفـة أو الحقيقـة، تأمـلْ... هل يسـتطيع المنهـج العلمـي أن يقرر شـيئًا في مباحث القيـم؟ وأظن أنك تدري ما أهمية القيم في حياة الإنسان بما هو إنسان، وكل هذا دون أن نشكك في صدقية المنهج العلمي؟ ■

(*) رئيس جمعية الفيزياء بجامعة وادي النيل / السودان.

ثقافة وفن

د. مريم آيت أحمد*



مستويات الحوار الحضاري مع الآخر

الحوار مبدأ راق لا يكاد يرفضه عقل سليم، وهو خطوة أولى نحو التعرف على الذات وإزالة سوء الفهم داخل الدائرة الواحدة (الذين يشتركون في ثقافة وحضارة واحدة)، وهو المدخل "الإنساني" للاقتراب من الدوائر الخارجية (خارج الحضارة الواحدة)... وحتى يكون الحوار مثمرًا ومؤثرًا ومقنعًا، لا يتم -عادة- في ظروف غير طبيعية. وكأي نشاط إنساني إذا حدث بين متكافئين يقدّر كل منهم الآخر، تكون له ثمراته وفوائده. وبالعكس إذا تم في ظروف "طارئة" وبين غالب ومغلوب، فإن نتائجه -في

الغالب- لا تكتسب صفة الاستمرار حتى وإن خففت بعض مواطن الاحتقان والألم أو ساعدت على تجاوز ما يهدد أحد الأطراف. والحوار له مستويات مختلفة باختلاف قضاياه وموقع المتحاورين.

حوار التعايش

فهناك حوار التعايش بين الناس حول موضوع التعايش بين أفراد الأمة الواحدة أو بين أفرادها وبين أفراد الحضارات الأخرى. وهذا المستوى من الحوارات، هدفه إزالة الحواجز التي تعيق التواصل، وتولد الجفوة والكراهية بين الأفراد العاديين، ومسرحه وموضوعه، المشاعر الإنسانية والحياة اليومية. وهو لا يتطلب مستوى عاليًا من الثقافة ومعرفة الآخر بقدر ما يحتاج إلى استحضار الأخوة الإنسانية، وفوائد روح التعاون، وثمرات حسن المعاشرة، والذوق الذي لا يحقر الآخرين أو يسخر من ثقافتهم أو يقوم بما يجرح مشاعرهم. وهذا المستوى من الحوار فطري يتجلى في حياة الناس اليومية وعلاقاتهم الإنسانية، إذ يدخل في إطاره الشاب المزارع، والصانع، والعامل البسيط... وهؤلاء الشباب ينبغي أن لا يستثنوا من فهم أدبيات حوار التعايش كما فهمها جيل سلفنا الصالح وطبقوها بالتعايش والتراحم مع أهل الذمة كما عايشهم رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه، وأصّل له بمعاهدة وفد نجران وصحيفة المدينة المنورة. وأكمل عمر بن الخطاب ﷺ منهج المدرسة النبوية بتتويج تاريخنا الإسلامي بالعهدة العمرية، ببنودها الإنسانية الراقية في مراعاة حقوق وواجبات أهل الكتاب.

الحوار المعرفي

وهو حوار بين أصحاب الفكر والعلماء. وهذا المستوى يتطلب منا اليوم، وأكثر من أي وقت مضى مع ثورة العولمة والانفتاح العالمي، أن نؤهل كوادر من شبابنا للمشاركة فيه، وتمكينهم من مفاتيح الدخول إلى المعرفة العميقة بفكر وحضارة الآخر، والقدرة على فحص مقوماتها والتعرف على أسسها ومبادئ منظومتها الفكرية والفلسفية والدينية والسياسية والاقتصادية. وهذا الشباب المرشح لتأهيله للحوار، ينبغي أن تتوفر فيه شروط أولى وأهم، وهي أن يكون متمكنًا حقًّا من فهم مكونات وأسس حضارته، ولديه القدرة على استخلاص قيمها الأصيلة التي لا تتأثر بالراهن الظرفي من الأحداث.

ولأن هذا الحوار -بطبيعته- هو حوار بين شباب مختص يضم مجموعات متعددة من الاختصاصات؛ فيها شباب مختص في علم العقائد والشرائع والأديان، وأطر متخصصة في التاريخ والفقه وأنظمة الحكم، وباحثون في علم الاجتماع والسياسة والاقتصاد والعمران.

فموائد الحوار مع الآخر تقتضي -حتى نخرج من نفق التعميم- توزيع الاختصاصات، وتخصيص الندوات والمؤتمرات، وحلقات النقاش لكل محور على حدة، حتى يصبح الشباب فعلاً قادرًا على ضبط الحوار في إطاره وموقعه. وبذلك يستطيع أهل الاختصاص ممن أهلناهم للمنافسة الحضارية العالمية، أن يتحدثوا لغة مشتركة يفهمها جيدًا شباب الثقافات والحضارات المراد الحوار معها.

الحوار الإنساني

من أولويات الحوار الحضاري، دفع الحوار في اتجاه معرفة "الإنسان"، فهذه المعرفة ضرورية للوقوف على مدى جدوى الحوار، إذ لو كان الإنسان حلقة متطورة من السلاحف والديدان والقرود، وكانت الحياة قائمة على أساس تنازع البقاء وصراع المصالح المادية، لقامت العلاقة على أساس الحرب والقتال لا على الفكر واللسان... أما الحوار الإنساني، إنما يقوم بين البشر على خلفية الإيمان بالجانب المعنوي السامي في الإنسان وليس الجانب المادي فقط. فنزعة "الطين" وحدها لا تؤدي إلى تعايش سلمي، بل تدفع إلى صراع مصلحي محموم، والسلام والتعايش والتفاهم والحوار، مقولات تتحقق في ظل نفخة روح رب العالمين في هذا الموجود البشري بالتعبير القرآني: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾(الإسراء:٧٠)، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾(الحجرات:١٣).

دور الشباب في البناء الحضاري

من أسباب تراجع مفاهيم الحوار الندي المتكافئ مع الآخر لدى شبابنا، عدم وجود تخطيط محكم بعيد المدى، حتى في حالة وجود أهداف وطموحات لهذا الحوار، فغالبًا ما تكون غير مدروسة ولا واقعية. وهكذا، نجد أن تدخلات شباب مجتمعاتنا، تتميز عمومًا بالفوضى والارتجالية وغياب التخطيط المحكم بتأهيل كوادر وأطر، وإهمال تقويم أهداف

وطموحات الحوار الفعال مع الآخر.

فالحديث عن الحوار، يتطلب مواجهة التحديات والأخذ بأسباب النجاح والقوة، ومن ذلك فهم أسباب تراجعنا عن الدور الحضاري لأمتنا، وشروط بناء الشخصية السليمة عند الشباب، وتنمية المهارات الإبداعية لإيجاد الحلول المناسبة للمشاكل المطروحة، والتحلي بالجدية والإيجابية والصرامة لمواجهة الواقع، وحسن تخطيط المشاريع والإعداد للمستقبل، والتشبث بالقيم الإسلامية.

إن الشباب المكلف بالتأهيل في عملية الحوار الحضاري لا يمكن تخليصه من عقدة الدونية والمؤامرة باتجاه الآخر، إلا إذا هيأنا له شعورًا متعاليًا بالشخصية الدينية والمعرفية والحضارية من خلال محيطه الداخلي.

الحديث إذن لا تخص حسن الآداب فقط، بل هي جزء رئيسي من تقنية العمل. ونحن نجد هذه الصلة بصورة رمزية في مجتمعاتنا حين نرى تعطلاً في العمل والإنجاز بمجرد تعطل تبليغ الأفكار بالكلام.

فالمشكلة مشكلة أفكار في النهاية، لأننا بها ننظم حوارنا في إثبات ذواتنا، وبها ندفع طاقتنا في إرادة العطاء والإنجاز. وأهمية الأفكار التي نحاور بها في حياة مجتمع معين، تتجلى في صورتين؛ فهي إما أن تؤثر بوصفها عوامل نهوض بالحياة الاجتماعية، وإما أن تؤثر على عكس ذلك بوصفها عوامل ممرضة تجعل النمو الاجتماعي صعبًا أو مستحيلاً.

بناء الدور الحضاري المؤهل للحوار

إن بناء الدور الحضاري كما عبر عنه "مالك بن نبي"، يحتاج اليوم من الشباب حسن توظيف ثلاثية مشكلات النهضة وهي مشكلة الإنسان، مشكلة التراب، مشكلة الوقت.

١- الإنســان: إن المشروع الإصلاحي يبدأ بتغيير الإنسان، ثم بتعليمه الانخراط في الجماعة ثم بالتنظيم فالنقد البنّاء. وتبدأ عملية التطور من الإنسان، لأنه المخلوق الوحيد القادر على قيادة حركة البناء وتحقيق قفزات نوعية تمهيدًا لبناء الحضارة. أما المادة، فإنها تبقى تجميعًا كميًّا لا يعطي معنى كيفيًّا نوعيًّا إلا بسلامة استخدام الإنسان له، فلكي يتحقق التغير في محيطنا، يجب أن يتحقق أولاً في أنفسنا، وإلا فإن الشاب المسلم لن يستطيع الحوار مع نفسه وبناء داخله الحضاري الذي يمكنه من الحوار مع الآخر، وعندها يجب على شباب أمتنا أن يحقق بمفرده شروطًا ثلاثة:

أن يعرف نفسه... أن يعرف الآخرين وأن لا يتعالى عليهم وأن لا يتجاهلهم... ويجب عليه في الشرط الثالث أن يعرف الآخرين بنفسه ولكن بالصورة المحببة، بالصورة التي أجريت عليها كل عمليات التغيير بعد التنقية والتصفية من كل رواسب القابلية للانهزام والتخلف الحضاري... فالشباب هو الهدف، وهو نقطة البدء في التغيير والبناء.

إن الحوار هو أبسط صورة لتبادل الأفكار، وهو بذلك المرحلة التمهيدية البسيطة لكل عمل مشترك. فقواعد

فالإنسان الذي لا يؤمن بالتفاعل والحوار ينتهي من الوجهة النفسية إلى التشاؤم، كما ينتهي من الوجهة الاجتماعية إلى تكديس المشكلات.

ومشكلة شبابنا اليوم تتخلص في جوهرها في عدم توجيه الأفكار، ولذلك كان علينا أن نحدد المعنى العام لفكرة التوجيه؛ فالتوجيه هو تجنب الإسراف في الجهد وفي الوقت. فهناك ملايين العقول الشابة المفكرة في البلاد الإسلامية، صالحة لأن ترشد وتوجه للبناء الحضاري حتى لا يذهب جزء كبير منها في العبث واللافاعلية.

إن الشباب المكلف بالتأهيل في عملية الحوار الحضاري لا يمكن تخليصه من عقدة الدونية والمؤامرة باتجاه الآخر، إلا إذا هيأنا له شعورًا متعاليًا بالشخصية الدينية والمعرفية والحضارية من خلال محيطه الداخلي. فالمحيط الثقافي الداخلي الذي يكبر الشاب في ثناياه، هو المكون الأساسي لإطاره وعقله الجمعي الثقافي.

٢- التـراب: وهو العنصر الثاني الذي يشكل الحضارة مع الإنسان والوقت في فكر مالك بن نبي. وحيث يتكلم عن التراب لا يبحث في خصائصه وطبيعته، ولكن يتكلم عن التراب من حيث القيمة الاجتماعية، وهي قيمة مستمدة من قوة وتمكين مالكيه. فحينما تكون قيمة الوطن مرتفعة،

يكون ثمن التراب غاليًا لدى أبنائه، وهنا يكمن دور الشباب في رفع المزيد من قيمة أوطانهم كما ثمنوها الأجداد والآباء بأرواحهم ودمائهم، حفاظًا على سلامة أمننا وكرامة حريتنا التي نزخر بها اليوم بعيدًا عن ربقة المستعمر.

٣- الوقت: وهو العنصر الثالث في تكوين الحضارة. إن حظ الشباب العربي والإسلامي من الساعات، كحظ أي شعب متحضر، ولكن هل نقدّر قيمة الوقت؟ هل ينتهي الوقت عندنا إلى إنجاز أم إلى عدم؟ هل أحسنا ترشيد شبابنا في عملية توظيف العلاقة التكاملية بين حسن استغلالهم للوقت في خدمة ترابهم لبناء حضارة مجتمعاتهم العربية والإسلامية؟

لقد أمعن مالك بن نبي، هذا المفكر الذي أصّل لشروط النهضة والحوار الحضاري، بتفكيك وتحليل مشكلات البناء الحضاري، متجاوزًا -بوضعها تحت مجهر مختبر المقاربة الحضارية- الظواهر السطحية إلى الجذور المتغلغلة في الأعماق، وباحثًا عن السنن والقوانين الكفيلة بتحويل شباب أمتنا من حالة العجز إلى القدرة والفعالية، ومن حالة مرحلية الانبهار والتقليد والاقتباس المتبع بالاستتباع المطلق إلى حالة البناء والإنجاز، ومن المطالبة بالحقوق إلى القيام بالواجب أولاً، لأن مفاتيح حل المشكلات بالحوار نجدها في الذات لا عند الآخر. واستكمال تفعيل الشخصية المسلمة باتجاه الواقع، يتطلب الاعتراف بتعدد التشكيلات داخل عالمنا الإسلامي (مذهبية، فكرية، سياسية، جغرافية، عرقية، تاريخية... إلخ) من حيث وجوب إفضائها إلى دلالة مقصدية واحدة، تنتج بدورها كما من الممارسات الغنية بتنويعاتها. كما يتطلب غوصًا في معارف الآخر الغربي، علومه وفنونه وآدابه وفلسفاته، وفرزها وغربلتها وإثراء أفق الذات بما يتوافق مع هذه المعارف وتوجهاتها وغاياتها، ويعمل على إنماء قدراتها ومهاراتها.

دور جوهري للشباب في الحوار

يحتل العالم العربي موقعًا جيوستراتيجيًا مهمًّا وهو فضاء غني ثقافيًّا وحضاريًّا ويشكل استثناء بتعدده الثقافي، فنجد أن كل دولة من دوله تتضمن ثقافات متفرعة تنصهر في ثقافة وطنية موحدة (الهوية العربية)، بيد أن ذلك التنوع يطرح سؤالاً عميقًا: هل هذا التعدد يعيش في حالة صراع، أم أنه في حالة هدوء تام وخضوع لأدبيات الحوار البناء؟

الحوار مبدأ راق لا يكاد يرفضه عقل سليم، وهو خطوة أولى نحو التعرف على الذات، وإزالة سوء الفهم داخل الدائرة الواحدة (الذين يشتركون في ثقافة وحضارة واحدة)، وهو المدخل "الإنساني" للاقتراب من الدوائر الخارجية.

يبقى المجتمع بشكل عام والشباب بشكل خاص، هو البوصلة في تحديد مدى تلاؤم وتنافر المفهومين؛ فالشباب له دور ريادي بارز في مدى تعاطيه مع مسألة القيم وعلاقته بالآخر، لأن الشباب في الأول والأخير، هو وحدة متنقلة تساهم في التطبيع والتلوث الثقافي إن هي تركت قيمها، أو تتعامل في إطار من الانفتاح المحافظ عن القيم لتشكل فضاء للحوار والتبادل.

وحتى يكون للشباب دوره كمساهم في الحوار الثقافي، يجب أن يأخذ بعين الاعتبار مدى تطلعات المجتمعات العربية وغاياتها بعيدًا عن تكريس أشكال العصبية والتفرقة... والحوار الثقافي الداخلي بين مكونات الذات ليس سهلاً، لأنه يتطلب عناء فكريًّا ونقدًا مزدوجًا للذات والآخر، وتفكيرًا في العوائق الفكرية والنفسانية والحضارية المتراكمة في الترسبات الجيولوجية لكتل الأحكام المسبقة والمترتبة عبر العصور وفي وظيفتها الثقافية.

وبناء على ذلك فإنه على الشباب المسلم إعمال الفكر في نقد ذاته أولاً، والوقوف عند النقاط السلبية التي تحول دون الخوض في حوار ثقافي حضاري تنموي بناء، وكذا القيام بنقد الآخر؛ غايته تحقيق التوافق والتصالح مع الذات والآخر في علاقة تؤسس لفضاء التعايش وتركز على القيم الأخلاقية. فلا بديل للشباب المسلم من أجل التنمية، إلا بحوار ثقافي باعتباره مدخلاً أساسيًّا في نبذ كل أشكال العصبية العرقية والمذهبية والفكرية. ■

(*) كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل بـ"القنيطرة" / المغرب.

د. خالد عمارة*

شجاعًا كان "الفاتح" بلا مراء.. بطلاً من أبطال التاريخ كان بلا شك.. ولكن بلا حكمة لم يكن أبدًا، وبلا معرفة بالفن العسكري لم يكن قط.. فالتركيز على شجاعته دون حكمته، وعلى بسالته دون معرفته، خطل في الرأي وقصور في النظر.

(الموازين)

* * *



الأخلاق
ودورها في نهضة الأمة

المتابع للتاريخ المكتوب، يرى أن الحضارة والنهضة لا تستقر في مكان ولا ترتبط بثقافة واحدة ولا شعب متميز. فقد بدأت الحضارة في الشرق مع الفراعنة والبابليين على مدى (٥٠٠٠) عام، ثم انتقلت إلى الغرب في الحضارة اليونانية والرومانية، ثم عادت إلى الشرق مع الحضارة الإسلامية، ثم انتقلت إلى أقصى غرب أوروبا مع العصر الحديث. وبالتالي فالتوقع بانتقالها إلى مكان آخر شيء منطقي، قد يكون هذا المكان هو الصين أو الهند، وقد يكون تركيا أو البرازيل، وقد يكون الصومال أو مصر... فمن يدري أين تبدأ الدورة الجديدة وإلى أين تنتهي؟

ويثور دائمًا السؤال: لماذا تقدم الآخرون وتخلف العالم الإسلامي في الثلاثمائة سنة الأخيرة؟ هل بسبب غياب القيادة والزعيم الملهم؟ بالطبع لا، فهناك العديد من مشاريع النهضة ومحاولات اللحاق بالعالم المتقدم، ولكنها فشلت. ومثال هذا؛ مشروع "محمد علي" في مصر، والذي فشل بمجرد هزيمته العسكرية أمام تحالف الغرب والدولة العثمانية.

بالرغم من أن اليابان -كمشروع للنهضة- قام في نفس الفترة الزمنية مع مصر (القرن الثامن عشر)، وتعرضت إلى هزيمة عسكرية أشد مرارة وكارثية في الحرب العالمية الثانية، ولكن الفارق اليوم كبير بين مشروع مصر واليابان.

من الممكن أن نسأل السؤال بصورة مختلفة: كيف نجحت الحضارة الإسلامية؟ كيف حوّل الإسلام شعوب الشرق من التفكك والقبلية والاستعباد والاحتلال إلى العالم الأول، ومنار للعلم على مدى أكثر من ثمانية قرون؟ بل وربما نجد في هذه الفترات بعض صور الفساد السياسي أو الحروب أو التحديات والكوارث، ولكن المجتمع كان يجمعه وعي ما، وصورة ذهنية تجعله يمضي في طريقه إلى الاتجاه الصحيح برغم المعوقات والمشاكل.

الإسلامي، نجد الرسول عليه الصلاة والسلام قد وضع بدين الإسلام مجموعة من المبادئ والأخلاق التي جمعت الشرق حولها. ومع انتشار الإسلام انتشرت اللغة العربية، فكانت الهوية العربية الإسلامية جامعة لشعوب شتى، حتى لمن لا يدين بدين الإسلام ولمن لا يتحدث العربية، فأصبحت بوتقة تجمع شعوب الشرق على مبادئ مشتركة وفكر متقارب، ويدخل في صناعتها أعراق ولغات شتى من فارسي وتركي ومالايو وأردو... إلخ. وأصبح توجه الشعوب في الشرق يعضده الثقة في القدرة على صنع غد أفضل ماديًّا وروحيًّا وعقليًّا، فانتشر العلم وازدهرت الصناعة والفنون.

وإذا حاولنا تطبيق نفس الافتراض على شعوب الغرب في أوروبا وأمريكا، نجد أن حالة النهضة صاحبها الشعور بهوية



الوعي الجمعي ينبع من هوية مشتركة

إذًا فيمكننا القول بأن السر في نهضة الأمم وتقدمها، هو الوعي الجمعي الذي يجمعها على هدف واحد وينبع من هوية مشتركة. هذا الوعي الذي يجمع الأمم، قد يكون سببًا في تقدمها أو تفتتها، قد يكون سببًا للنهوض أو الاستسلام، قد يكون حافزًا على التحدي ومواجهة الصعاب، وقد يكون السبب في الاستسلام أمام محنة أو هزيمة. ولصناعة الوعي الجمعي للأمم، نحتاج إلى الاتفاق على هوية ومبادئ تجمع البشر، ونحتاج إلى هدف يوحّد مسارهم. فالجغرافيا وتقارب السكن والمكان وحده، لا يكفي لعمل وعي جماعي، فمن الممكن أن تسكن قبائل متناحرة نفس المنطقة، وكل منها له هوية مختلفة وهدف مختلف.

إذا أخذنا هذا الافتراض وطبقناه على نهضة العالم

مشتركة (يونانية رومانية مسيحية) تجمع الإنسان الأوروبي أمام العالم، وشعور بالقدرة والقوة، استمده في البداية من الانتصارات المتسارعة على الشعوب الأصلية لقارة أمريكا وأستراليا، وتطورت هذه الثقة مع القدرة المادية إلى عصر الاستعمار، وتطورت الثقة الشديدة والشعور بهوية متفردة إلى حالة مرضية، ظهرت في أوج حالاتها في النازية والفاشية من عنصرية واضطهاد للأجناس الأخرى.

إذًا فَلِكي ننهض؛ لا يكفي فقط أن يكون هناك دستور أو قانون أو ديمقراطية شكلية، بل يجب أن يصاحبها وعي جمعي يتجمع الناس حوله، ويتقدمها، ويحرص على تفعيل القانون وتطبيق المبادئ للوصول إلى النهضة المادية والعقلية والروحيه.

الأخلاق هي الصورة الواقعية للوعي الجمعي

هذا الوعي الجمعي في الشرق، يجب أن يتضمن هوية عربية

إسلامية، ولكن هذا وحده لا يكفي، فلابد معه من أخلاقيات تحافظ على تجانس هذه الهوية، بل إن الأخلاق يجب أن تكون هي المحور الأصيل لهذا الوعي الجمعي. فالمبادئ التي تشمل، لا تقتل ولا تكذب ولا تغش ولا تسرق مبادئ تحافظ على أي كيان إنساني وتحميه من الضياع. ولكن إذا تحولت هذه المبادئ إلى إيجابية، فيصبح الحرص على الصدق والأمانة والإتقان جزء من الهوية والثقافة. فهنا يكون صناعة الهوية وليس فقط حمايتها، وهنا تتحول الهوية المجمعة والوعي الجمعي إلى شرف، وتتحول المجموعة البشرية المؤمنة بوحدة الوعي الجمعي إلى جسد واحد. وعند هذه المرحلة يصبح كل عضو في هذه الجماعة، لديه من الكرامة والترفع ما يمنعه من أن يأتي الدنية أو أن يفعل ما

إذا أردنا النهضة الأخلاقية للشرق، فعلينا العمل على إعادة بناء مؤسسات التعليم، والإعلام، والمؤسسات الأهلية، والحكومة الرشيدة، ويكون المنبع هي هوية الحضارة الإسلامية وروحها، والاتجاه نحو نهضة الشرق، وتكون الأخلاق هي التطبيق العملي والواقعي في الحياة اليومية.

يعيب هويته من مفاسد الأخلاق. فيصبح الكذب عيبًا والغش إهانة، لا يرضاها على نفسه أيّ عضو في هذه الجماعة. في حين إن الجماعة المتفككة يتحول كل فرد فيها إلى الانتهازية التي تسمح له بأن يفعل أي شيء وكل شيء في سبيل مصلحة عابرة أو مكسب ضئيل. فيمكنه أن يكذب أو يسرق أو يغش أو يخون مقابل أشياء تافهة أو حتى بدون مقابل، فيتحول الكذب والغش إلى عادة ومرض لا يستطيع الشفاء منه، ويصبح خيانة الوطن ضرورة للبقاء والحصول على الرزق.

إن الاستعمار والطاغية والديكتاتور، يحرص دائمًا على هدم ثلاثة دعائم في الأمم المستضعفة كي يستمر في السيطرة عليها هي؛ الأمل والأخلاق واحترام الذات. حين يهدم هذه الدعائم يتحول البشر إلى قطيع من الحيوانات، تتصارع على الفتات وتتنافس في خدمة سيدها. وكما رأينا؛ فالوعي الجمعي الذي ينبع من هوية مشتركة تجمع الأمم على الثقة بالنفس وبالقدرة على النهضة، ومنها ينبع الأمل في غد أفضل. ويظهر هذا في الواقع في صورة احترام للنفس والمبادئ والأخلاق، وبالتالي فالأخلاق تكون الصورة الواقعية للوعي الجمعي. وقد تميز التراث الإسلامي بالحرص على استعمال الأخلاق داخل وخارج المجتمع الإسلامي، فلا تكون الأخلاق مقصورة على جنس أو عرق أو لغة أو دين، ولكن لأن منبعها هو دين الإسلام، فقد كان هناك الحرص على نبذ التفرقة والتمييز بين الشعوب، سواء في المعاملة أو الحقوق أو الواجبات، ومن باب أولى المعاملة الأخلاقية مع كل البشر.

وربما يظهر هنا السؤال عن: كيف يتنازل البعض عن الأخلاق في المجتمعات؟ هل البوليس المصري كله بدون أخلاق حين رضي بتعذيب المسجونين في عهد "حسني مبارك؟" هل الجيوش التي تقتل أهلها كلها بلا أخلاق؟ هل يمكن أن يتنازل الإنسان عن مبادئه لمجرد طاعة الأوامر؟ أم إنه شريك في الجريمة ومقتنع بما يفعل؟

أعتقد أن أفضل إجابة على هذا السؤال هي تجارب "ستانلي ميلغرام" في جامعة "يال" بـ"الولايات المتحدة" والتي نشرها في سبعينات القرن العشرين، والتي أوضحت أن الكثير من البشر لديهم الاستعداد للتنازل عن مبادئهم في سبيل طاعة الأوامر، كي يحافظ على وجوده ضمن المنظومة العامة لمجتمع ما. وهذه الصورة من التنازل عن الأخلاق في سبيل طاعة الأوامر، وفي سبيل البقاء ضمن منظومة اجتماعية معينة هو شيء خطير. والأخطر أن هؤلاء الذين يتنازلون عن أخلاقهم في سبيل إرضاء ولي الأمر دائمًا، يجدون من الحجج والأسباب ما يكفي ليجعل ضمائرهم مستريحة، وليقنعوا أنفسهم والآخرين أن ما يفعلون هو دفاع عن الحق والفضيلة.

ولكن ما نريدهم؛ هم الفئة الرائدة التي تصنع المجتمعات، ولا تنقاد وراء القطيع التي لا تتنازل عن أخلاقها من أجل طاعة الأوامر، والتي نصحنا الرسول ﷺ فقال: "لا تكونوا إمَّعَة تقولون: إن أحسن الناس أحسنّا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطِّنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساؤوا فلا تظلموا" (رواه الترمذي). هؤلاء هم من سيبنون العصر الجديد لنهضة الأمة الإسلامية واستعادة مجد الشرق.

كيف يتحقق الوعي الجمعي في المجتمعات؟

هذا ينقلنا بالضرورة إلى السؤال التالي وهو: كيف نحصل

علـى هـذا المجتمع صاحـب الوعـي الجمعي والقـادر على صناعـة النهضـة؟ وهل نحتاج إلى إعادة تربية مليار مسـلم أو (٨٠) مليـون مصري لنحصل على هذه النهضة؟ وهل لابد لنا من الربط بين الهوية الحضارية للأمة الإسلامية وبين مشروع النهضة والأخلاق؟

بالنسـبة للسـؤال الأول، كي نصنع هـذا المجتمع؛ نحتاج إلى وضوح رؤية للهوية المجمعة التي تجمع حولها الملايين وتقنعهـم بأحقيتهم فـي النهضة والارتفاع إلـى أعلى المراكز بيـن الأمـم. وهذا الوضوح يجب أن يكـون حاضرًا في أربعة مؤسسـات؛ الإعـلام، التعليـم، المؤسسـات غيـر الحكوميـة التـي تتعامل مـع المجتمع (مثل الجمعيـات الخيرية والأهلية والأوقـاف والمؤسسـات التربوية)، والحكومة الرشـيدة التي ترعى المشـروع ولا تحاربه ولا تعطله، بل تسـاعده (ونقصد بالحكومـة الرشـيدة؛ حكومـة واعيـة مسـتقلة القـرار، تتبنـى مشـروعًا للنهضة بعيد المدى). التناغم بين هذه المؤسسـات سيساعد على تحقيق هذا الوعي الجمعي بصورة أسرع، ولكن عدم التناغم لا يعني بالضرورة فشل مشروع الوعي الجمعي، ولكنه يعني بطء تطوره. فمن الممكن أن نجد مؤسسات أهلية وإعلام تبني في اتجاه، بينما تكون حكومة غير رشـيدة (سواء جـاءت بالانتخاب الديمقراطي أو بالديكتاتورية) تهدم ما يتم بناؤه، ولكن الحركة المجتمعية سـتلعب الدور في تحديد أي الاتجاهين سيستمر.

بالنسـبة للنسـبة المئويـة المطلوبـة لبدء عجلـة التغيير في مجتمع، يحتاج لمشـروع النهضة ونشر الأخلاق. فهناك نقطة التحول التي تكون عادة تتراوح بين ١٠ إلى ١٥ في المائة من المجتمـع. هذه النسـبة أثبتـت الكثير من الأبحـاث أنها كافية ومؤثرة في تحريك دفة السفينة وعجلة القيادة، فتكون القاطرة الكافيـة لجـر باقـي المجتمع ورائهـا. وهناك الأمثلـة الكثيرة لذلك على مر العصور، وليس هناك أوضح من مثال مدرسـة النبـوة فـي دار "الأرقم ابن أبي الأرقم"، التـي تربى فيها جيل الصحابة على يد النبي عليه الصلاة والسـلام، وكانوا سببًا في هداية الملايين وفي نشر الدعوى ونهضة الشرق.

أما بالنسـبة إلى السـؤال الثالث وهو: هـل لابد من الربط بيـن الأخـلاق والنهضـة والهوية الإسـلامية للأمـة؟ فالإجابة بـ"نعـم"، لأن هـذه الهويـة هـي ما سـتحرك العامـل والصانع والفـلاح والشـرطي ورجـل القانـون والعالـم... إلـخ. هـذه هـي القـوة الوحيدة الجامعـة التي لا تحتاج إلى اسـتيراد ولا إلـى تبعيـة، وبالتالي فهي قـوة مجمعة لعناصـر الأمة وملهمة لهـا، وتحافظ على اسـتقلالها وتفردها وثقتهـا بالنفس. ولأن قوة الهوية المتجانسـة تكـون دافعًا كافيًا للالتـزام بالأخلاق، فلتطبيـق الأخـلاق لا يمكـن أن تكـون القوانيـن كافيـة، ولا يمكن أن يكون وراء كل مواطن شـرطي يراقب أخلاقه. لابد أن يكـون التصـرف بأخلاق نابعًـا من الاقتنـاع والإيمان بها، وليـس هناك وسـيلة لهذا أقوى مـن الوعي الجمعـي واتحاد الهويـة والهدف. هذه قاعـدة مطلوبة لا اسـتغناء عنها لنهضة أي أمـة، فضلاً عـن أن الهوية الإسـلامية تميزت عـن الهوية الأوروبية بأنها لم تعتمد العنصرية وسيلة للتأكيد على التميز. فـلا نجـد في هذه الهوية تأكيدًا على تفوق جنس على الآخر، أو السـماح بسـرقة وقتل شـعوب، بينما تمنع السرقة أو القتل داخل الشـعب المتفوق، كما هو الحال في الغرب من الكيل بمكيالين. فمن غير المقبول في الأعراف الأوروبية أن تسرق الحكومـة مـال شـعبها، ولكـن مقبول أن تسـرق مـال الأمم الفقيـرة فـي أفريقيا وأمريـكا اللاتينية!! ولكن هذا الأسـلوب غيـر الأخلاقـي، لا يجـد قبـولاً فـي كلاسـيكيات الحضـارة الإسلامية... وبالتالي فمن السهل الربط بين الأخلاق والهوية الإسـلامية لهـذه الأمة، بل من الواجـب أن يكون هذا الربط، فتصبـح الأخـلاق الراعي الأساسـي لأي نهضة في الشـرق.

فـإذا أردنـا النهضة الأخلاقية للشـرق، فعلينـا العمل على إعادة بناء المؤسسـات الأربع: التعليم والإعلام والمؤسسات الأهليـة والحكومة الرشـيدة، ويكـون المنبع هويـة الحضارة الإسـلامية وروحهـا، ويكـون الاتجـاه نحـو نهضة الشـرق، وتكـون الأخـلاق هـي التطبيق العملـي والواقعي فـي الحياة اليومية لكل من يعيش هذا المشروع. ■

(*) أستاذ جراحة العظام، جامعة عين شمس / مصر.

المراجع

(١) مقال الوعي الجمعي، للأستاذ فتح الله كولن. مجلة حراء، العدد: ٢٥.
(٢) الضمير المجتمعي، إيميل دوركايم.
(٣) الانصياع للسلطة، ستانلي ميلجرام.
(٤) تاريخ قصير جدًّا للعالم، جيوفري بلاني.
(٥) نقطه التحول، مالكوم جلادويل.

أدّي ولد آدبّ*

الناي في مقام التجلي

يـا نافـخَ النَّـايِ.. إسْـرَافيلُ والصُّورُ
أرَاهُمَـا فِيكُمَـا إذْ صَحْصَـحَ النُّـورُ

ما كنتُ أفهَـمُ فِعْلَ النَّـايِ فِي خلَدِي
حتـى تجَلَّـى لِرُوحِـي المُلْهَـمُ الطُّورُ

رُوحِي ورُوحُـك.. رُوحُ النَّـاي مَلْحَمَةٌ
زبُورُهَـا بنشِـيج النَّـاي مَسْـطُورُ

النَّـايُ مَجْـرَى صَـدَى الأرْوَاحِ يَعْزفهَا
بَيْـنَ الأناملِ تقتِيـرٌ وتحْرِيـرُ

فالمُصْمَتَـاتُ بجَـوْفِ النَّاي حَشْـرَجَةٌ
والمُرْسَـلاتُ لهَـا بالرِّيـحِ مَزْمُـورُ

الرِّيـحُ تَبْحَـثُ عَنْ نـايٍ يُمَوْسِـقُهَا
فخَـارِجَ النَّـاي عَـزْفُ الرِّيـحِ مَنْثورُ

الرِّيـحُ والـرُّوحُ -فِي مَعْناهُمَـا- نَفَسٌ
والنَّـايُ كالجسْـمِ بالأنفـاسِ مَعْمُـورُ

النُّـايُ أتفـهُ عُـودٍ دُونَ نافِخِـهِ
إنْ يَنفـخِ الـرُّوحَ فِيـهِ إنـهُ الصُّـورُ

ونافِـخُ النَّـاي دُونَ النَّـاي طِينَتُـهُ
لـمْ يَنفـخ الـرُّوحَ فِيهَـا طِينـةٌ بُـورُ

النَّـايُ يَشْـرَبُ سِـرَّ الـرُّوحِ خمْرَتَـهُ
فـإنْ تَنَفَّسَـها فالكَـوْنُ مَخْمُـورُ

النَّـايُ يَعْصرُ إحْسَـاسَ الوُجُودِ صَدًى
فـكُلُّ قلْـبٍ بصَـوْتِ النَّـاي مَعْصُورُ

انظـرْ لشـبَّابَةِ الرَّاعِـي إذا نُفِخَـتْ
يَهْفُـو القطيـعُ لَهَـا أعْناقُـهُ صُـورُ

النَّـايُ يَنْدُبُ عَهْـدَ الرَّتْقِ مُـذ فُتِقَتْ
عَناصِـرُ الكـوْنِ قلبُ النَّاي مَشْـطُورُ

النَّـايُ تشْـكُو سَـحِيقَ النـأي زَفْرَتُهُ
لِذاك سَـمَّوْهُ فهْوَ -الدَّهْـرَ- مَصْدُور

النَّايُ مِنْ سِـدْرَةِ الخُلْدِ التي سَـحَرَتْ
قِدْمًـا أبَانَـا فأيْـنَ الخُلـدُ والحُـورُ؟

النَّـايُ يُعْـولُ تـذكَارًا لمَنْبِتِـهِ
كَمَـا يَحِـنُّ لـدَى الهجْـرَانِ مَهْجُورُ

ونافخُ النَّاي يَحْكِي صَـوْتَ "كُنْ" أزلا
كُلٌّ عَلَـى تَوْقِـهِ لِلأصْلِ مَفطُـورُ

يـا نافِـخَ النَّـاي عُجْبِي حِيـنَ تَنفخُهُ
أنْ لا يَـدِبَّ بعُـودِ النَّـاي يَخْضُـورُ

(*) شاعر موريتاني.

د. سعيد كامل بلال*



الرمان
في الحفاظ على حياة الإنسان

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾(الأنعام:١٤١).

في هذا المقال سنحاول الكشف عن إمكانيات فاكهة الرمان، واستعمالاتها الوقائية والعلاجية على مدى التاريخ الإنساني، مع التركيز على استخدامات هذه الفاكهة في الطب الحديث، من خلال الأبحاث المنشورة حديثًا في الدوريات العالمية، مما يكشف الإعجاز القرآني في الإشارة إلى هذه الفاكهة واختصاصها بالذكر. إن الحضارات القديمة في الأرض تكاد تُجمع على أهمية الرمان وفوائده الطبية العديدة، وتنظر إليه بعين التقدير والاعتبار.

ففي الحضارة اليونانية القديمة، فإن الرمان كان يمثل الحياة والتكاثر والزواج، ودخلت حكاياته وفوائده الخارقة في كثير من الأساطير اليونانية، كما كان يُعرف باسم "فاكهة الميت" نظرًا لأن المحتضر عادة ما يطلب الرمان.

والمصريون القدماء كانوا يعتبرونه واحدًا من الفواكه المقدسة، ووُجد في الرسوم الموجودة على المعابد المصرية القديمة. والفُرس كانوا يعتبرون أن بذور الرمان إذا أكلها المقاتل جعلته لا يُهزَم في الحرب. والبابليون اعتبروا أن بذور الرمان هي العنصر المحفز للبعث والنشور. وعند الصينيين القدماء، فإن الرمان يرمز للحياة الأبدية، ويستخدمه الصينيون بشكل كبير في فنون الخزف، حيث يرمز إلى الخصوبة والوفرة والذرية الصالحة والمستقبل السعيد.

شجرة الرمان

شجرة الرمان شجرة جذابة متوسطة الحجم، يبلغ متوسط ارتفاعها حوالي خمسة أمتار وتعيش لسنوات طويلة. تبدأ

الإنتاج بعد السنة الأولى إلى ١٥ سنة، حيث يبدأ الإنتاج في التراجع، وفي بعض الحالات التي سُجلت في جنوب أوروبا عاشت الشجرة ما يزيد على مئتي عام.

وهي شجرة دائمة الخضرة في كثير من المناطق، ولكن في بعض الأماكن وبعض الأنواع منها، تتساقط أوراقها وتتجدد سنويًا. لها زهور جذابة، حمراء برتقالية، وأوراق صغيرة لامعة رمحية الشكل، كما تتميز ثمارها المعروفة بتيجانها الكأسية، وتتراوح ألوانها من الأصفر إلى الأحمر الغامق، كما تحتوي الثمرة على العديد من البذور المحاطة بحويصلات العصير المتعددة الأضلاع، والمرصوصة بتداخل عجيب.

الرمان في الطبّ

تقريبًا كل أجزاء النبات تُستخدم في الأغراض الطبية؛ الزهور والعصير، والبذور الجافة، وقشرة الثمرة، واللحاء المحيط بالسيقان والجذور.

كما أن الجزء المأكول من الثمرة يحتوي على نسبة ٨٠٪ من عصير و٢٠ ٪ من بذور. والعصير يحتوي على ٨٥٪ من ماء، و١٠٪ من سكريات، و١,٥٪ من بكتين، وحمض الأسكوربيك والبوليفينولك فلافينويد.

أما الكيماويات النباتية الموجودة في الرمان فهي:

العصير: يعتبر مصدرًا مهمًّا لنوعين من مركبات البوليفينولك: أنثوثيانين وهيدروليزابل تاننيس.

البذور: تُعتبر مصدرًا مهمًّا للألياف والسكريات والبكتين، كما تحتوي على هرمون الإستروجين.

لحاء الشجرة: يحتوي على حمض البونيكوتانيك، وحمض الجاليك -مانايت- بيليتيرين ميثيل ايزوبيليتيرين.

القشرة الخارجية للثمرة: تحتوي على معظم الكيماويات النباتية.

الرمان في الطب التقليدي

استُخدم الرمان في الطب التقليدي على مدى طويل من الزمان في معظم حضارات الأرض، وأهم استخداماته:

أمراض الجهاز الهضمي: الإسهال والدوسنتاريا، والمغص المعوي، والتهابات القولون، وعسر الهضم، والطفيليات المعوية، وعلى الأخص الديدان الشريطية.

أمراض الأجهزة التناسلية: مثل التهابات الجهاز التناسلي، والإفرازات البيضاء، وفرط الطمث.

أمراض الجلد والأنسجة الرخوة: تُستخدم القشرة كدهان خارجي في حالات التهابات الجلد التحسسية، حب الشباب، والتهابات الثدي.

ويُستخدم الرمان كذلك في أمراض الجهاز العصبي مثل الشلل، والصداع، والهستريا. وفي حالات الشرج الجراحية مثل البواسير وسقوط المستقيم. وفي أمراض العين والأذن مثل آلام الأذن، وضعف الإبصار. وفي أمراض الفم والأسنان مثل التهابات اللثة وآلام الأسنان.

الرمان في الطبّ الحديث

هناك العديد من الأبحاث المنشورة حديثًا في الدوريات الطبية العالمية -وعلى الأخص في السنوات القليلة الماضية- والتي تدل على الأهمية الفائقة للرمان في العديد من المجالات الطبية منها:

فاعليته كعنصر مضاد للأكسدة: يحتوي الرمان على عناصر ذات فاعلية عالية كمضادات للأكسدة التي تعمل على الحفاظ على صحة الخلية الإنسانية وتقاوم الأمراض. فالرمان يحتوي على المئات من المركبات المعروفة، من بينها مركبات "البولي فينول" القابلة للذوبان (Soluble Polyphenol Compounds)، والتي ثبت أن لها فاعلية عالية كـ"مضادات للأكسدة" مثل "حمض الإيلاجيك" (Ellagic Acid) و"حمض الجاليك" (Gallic Acid) و"الأنثوثيانين" (An-thocyanins) و"الكاتيتشين" (Catechins) و"الإيلاجيك تاننيس" (Ellagic Tannis).

علاج وقائي وكيماوي للسرطان: ثبت أن خلاصة الرمان في الجرعات العلاجية، تسبب موتًا طبيعيًا لـ"لخلايا السرطانية" (Apopto-sis) دون أن تؤثر على الخلايا السليمة. وقد استُخدم بنجاح في علاج سرطان الثدي، حيث ثبت أنه يوقف نمو الخلايا السرطانية، ويمنع انتشارها،

ويزيد من معدلات "الموت الطبيعي" (Apoptosis) للخلايا السرطانية. كما ثبتت فاعليته العالية في العلاج والوقاية من سرطان المثانة البولية، حيث يوقف نمو الخلايا السرطانية، كما يتدخل في العوامل الوراثية للخلايا السرطانية بما يؤدي إلى موتها في النهاية.

علاج أمراض القلب والأوعية الدموية: ثبتت فاعليته العالية كمضاد لتصلب الشرايين، وقد تمت تجربته على الفئران والإنسان بنجاح، فوُجد أنه يقلل من نمو البؤر التصلبية؛ وذلك لآثاره المضادة للأكسدة على "الليبوبروتين" وآثاره على "الخلايا اللاقمة" (Macrophages) و"الصفائح الدموية"، واستعادة الوظائف الطبيعية المضطربة للعضلة القلبية.

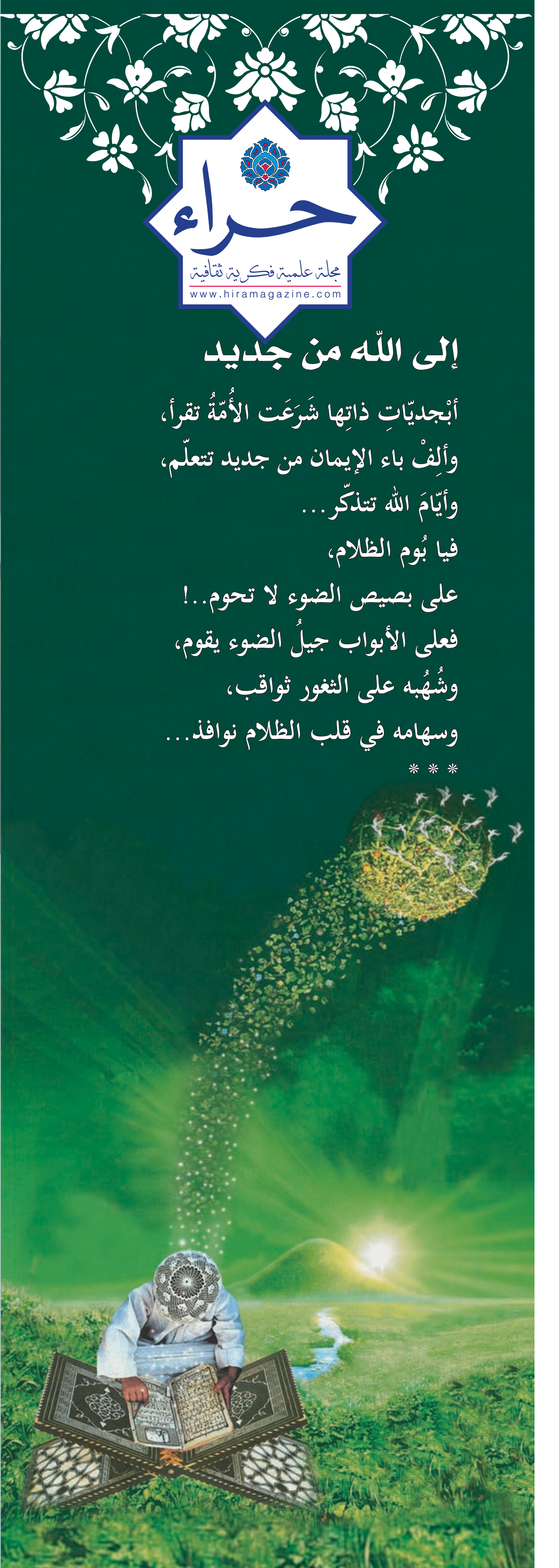
مضاد للميكروبات وللالتهابات: ثبتت فاعليته العالية كمضاد للفيروسات ومضاد للبكتيريا وكمضاد للالتهابات، ومضاد للعوامل المسببة للتشوهات الوراثية، كما يقوي جهاز المناعة، ويمنع تليف الكبد، ويحفز التئام الجروح، ويقوّي الأنسجة الرخوة، وهذا أيضًا يمكن أن يساهم في منع الخلايا السرطانية من الانتشار.

الرمان في شعارات الهيئات الطبية العالمية

"الجمعية الطبية البريطانية" (British Medical Association)، وثلاث من الكليات الطبية الملكية وهي "الكلية الملكية للأطباء" (Royal Collage of physicians) و"الكلية الملكية لأطباء النساء والتوليد" (Royal Collage of Obstetricians and Gynaecologists) و"الكلية الملكية للقابلات" (Royal Collage of Midwives)، تُضمّن الرمان في شعاراتها، مما يعكس أهميته الكبرى في الممارسة الطبية، وقناعة هذه المؤسسات الطبية العريقة بفوائده الكبيرة.

هذا الاستعراض التاريخي إضافة إلى الدراسات الطبية الحديثة والموثقة، تدل على أهمية الرمان ودوره في الحفاظ على حياة الإنسان، وعلاج الكثير من الأمراض. ومن هنا تأتي الإشارة القرآنية المعجزة لهذه الفاكهة باعتبارها من النعم والآيات الدالة على قدرة الله ﷻ وعظمته، حيث إن هذا القرآن قد نزل على نبي أميّ في أمة تفتقد أسباب العلم والحضارة، فإن هذا يدل على صحة نسبة هذا القرآن. ■

(*) كلية الطب والعلوم الطبية، جامعة الطائف / المملكة العربية السعودية.

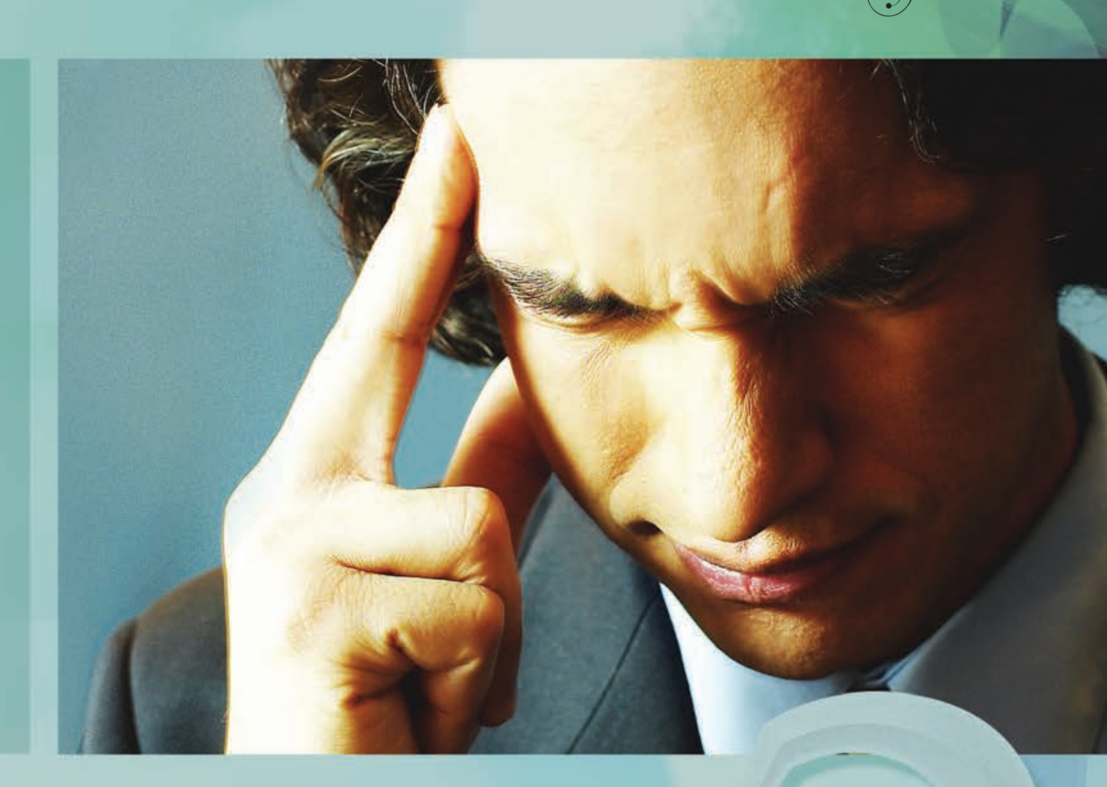


سعاد الولايتي*

قبل أن تقدم حاورْ ذوي الخبرة واستشرهم، واستأنس بأفكارهم.. ثم أقدم وتوكل، فكرْ، قدِّر، احتط لأكثرَ النتائج سوءًا.. فإنْ لم تفعل فلا تلومنَّ إلا نفسك إذا خاب أملك وعظمت مصيبتك.

* * *







إضاءات للتعافي من الاكتئاب

مهما بلغت حدة الشعور بالاكتئاب، فإنه يمكن السيطرة عليه مع الوقت وقليل من الجهد، بل والعلاج إن استدعى الأمر. وقد تطورت وسائل العلاج والتعامل مع الاكتئاب، سواء من الناحية الدوائية أو العلاج السلوكي والتحكم بنمط التفكير وردود الفعل، عن طريق تمارين ذاتية أثبتت نجاحها في علاج حتى أعتى حالات الاكتئاب.

إن أساس فكرة العلاج السلوكي الإدراكي، هو أننا بإمكاننا أن نعيد برمجة أذهاننا، ونتخلص من الأفكار الانهزامية السلبية.

إن الشعور بالكآبة شعور مؤلم يستنفد طاقة الفرد، ويسبب له الشعور بالخور والهبوط والإحباط، إلا أنه قابل للانفراج بالبدء بخطوات صغيرة

نحـو التغيير، والبناء عليها خطـوة بخطوة بثبات وصبر وأمل، واستعانة بالمحيط الاجتماعي المساند.

التعافي من الاكتئاب يحتاج إلى طاقة، وهذه يصعب جدًّا إيجادهـا أثناء هجمة الكآبة، بل لعل مجرد التفكير ببذل طاقة يعتبر بحد ذاته مجهودًا لمن يعانيها. الوضع صعب، لكنه ليس مستحيلاً، وإليك بعض الخطوات أو الإضاءات التي قد تعين:

١ – حافـظ على دائرتك الاجتماعية مهما بلغ بك الحال: حيـن تضيـق بـك الأمور، قـد تميل نفسـك إلى الانطـواء أو الانعـزال وتجنب الناس، حاول أن تقاوم هذا الشـعور، وخذ خطوات -ولو بسـيطة- باتجـاه الاختلاط مع من ترتاح إليهم عادة، ومن يبثون في نفسك السعادة والتفاؤل.

قـد تشـعر بالخجـل من اكتئابـك، أو بالخـوف من ظهور علامتـه لمـن حولك، أو بانعدام الطاقة للمحادثة والمشـاركة في أي شـيء، لكن مـن المهم أن تعلـم أن الانعزال يزيد من كآبتك، ويغرقك في أعماق أفكارك السلبية.

تذكـر مهما بلغ بك الضيـق، لابد أن تقاوم إغراء الهروب والانطواء؛ قد يمتص الاكتئاب طاقتك، لكن لا تسمح له بأن يوقف حياتك.

٢ – اعتن بنفسـك: لكـي تتغلب علـى الاكتئـاب، فإنك بحاجـة لأن تلتـزم ببعـض الخطـوات التـي قـد تبدو بسـيطة وغيـر ذات أهميـة (قضاء الوقت في الطبيعـة، تجنب الأخبار والبرامـج المحزنـة، نيـل الكفايـة مـن النـوم...)، إلا أن لهـا المفعول الملحوظ جدًّا في تبديد ما تشعر به من غم.

٣– مارس الرياضـة بانتظام: حين تكـون مكتئبًا قد تكون الحركـة هـي آخر ما تـود القيام بـه، لكن الرياضـة أداة فعالة فـي مكافحـة الاكتئاب، بل لقد أثبتت الأبحاث أن الممارسـة المنتظمـة للرياضـة، كثيرًا ما تحقق نفـس النتائج التي تحققها الأدوية مضادات الاكتئاب في رفع مستوى الحيوية، وخفض شـعور الإجهاد لدى الشـخص المكتئب. لم يتوصل العلماء إلى السـبب وراء هذه الحقيقة، إلا أنهم وجدوا أن الممارسة المنتظمـة للرياضة، تزيد من كمية وفاعليـة الناقلات العصبية المحسنة للمزاج، كما ترفع من نسبة هرمون الإندورفين الذي يؤثر على المشاعر الإيجابية، وتخفف من التوتر، وتعين على الاسترخاء العضلي.

٤– اجعـل غـذاءك متوازنًـا وصحيًّا بقدر الإمـكان: لم تخطـئ الحكمة القائلة: "أنت ما تأكل". واحرص على الغداء



يجب علينـا أن نعتاد على التعرف علـى ذواتنا وإعطائها قدرها من الثقة والإيمان بعيدًا عن نظرة أو رأي من حولنا. وليس المقصـود الغرور بالنفس، وإنمـا الوصول إلى قيمة ذاتية ثابتة لا تتأرجح بتأرجح رأي الآخرين.

المتـوازن المكون مـن البروتنيات، والكربوهيـدرات المركبة (الخبز الأسـمر مثلاً) والفاكهة والخضار... تجنب السكريات والكربوهيـدرات المكـررة -كالإكثـار من البطاطـس المقلية والوجبات السـريعة- فلها تأثير سـلبي علـى تقلب المزاج... وأكثـر مـن تناول الموز والرطب واللبـن، إذ لها تؤثر في رفع مستوى السيريتونين واستقراره.

أكثـر مـن الأغذيـة المحتويـة علـى دهـون "الأومغـا ٣"، لأن لهـا الأثر الملحـوظ في رفع المعنويـات، وهي متواجدة في الأسـماك الدهنية، خاصة سـمك السـالمون، والماكريل، والسردين، والمكسرات (خاصة الجوز).

٥– تجنب الأفكار السـلبية وارفضها: يقـول الأخصائي النفسـي "ديفيد بيرنز": "المكتئبون هم أسـاتذة فن الخداع، إذ أنهم بنظرتهم المتشائمة، لديهم القدرة على قلب النجاح إلى فشل، والفشل إلى إخفاق".

كثيـر ممـن عندهـم القابليـة للكآبـة، هـم من أكثـر فئات المجتمـع نجاحًـا وإنجـازًا، إلا أنهـم مصابـون بـداء التفكير السـلبي المتواصل حول أنفسهم ومسـتقبلهم. ورؤيتهم تلك تشوه نظرتهم للكون حتى يغدو كل شيء حولهم كئيبًا وبائسًا.

إن التوجـه نحـو التفكيـر السـلبي، لا يعتبـر مـن أعراض

الكآبـة فقـط بل هو أساسـها، إذ بما أن أفكارنـا ومعارفنا هي التي تشـكل مزاجنا فـإن الأفكار الإيجابية تترجم نفسـها إلى مزاج حيوي ومتفائل، بينما الأفكار السلبية المتكررة قد تغرق صاحبها في بحر من اليأس.

لا تتعجل النتيجة... من سـار علـى الدرب وصل... أكثر الأخطاء شيوعًا عند من يعاني من الأفكار السلبية هي الانهزام المبكـر، والإحباط أمـام ما يرى من طريق طويل أمامه وجهد شاق في تصيد أفكاره السلبية والصبر على تغييرها.

لا تلـم نفسـك على سـلبية أفـكارك؛ اكشـف بالاعتراف بوجودها والحاجة لتغييرها، ثم سـر في طريقك بإيجابية وثق بالوصول.

كلمـا حدثتْك نفسـك بتشـاؤم، حدّثْها بلطـف الله وفضله ورعايتـه وعنايتـه. وجه انتباهك وتركيـزك لكل ما هو إيجابي وبنـاء فـي النـاس حولـك؛ وفـي الأحـداث وفـي الظروف، ﴿وَلَسَـوْفَ يُعْطِيـكَ رَبُّـكَ فَتَرْضَى﴾(الضحى:٥). الجانب الذي توجـه انتباهـك إليه، هو الجانب الذي سـوف ينمـو ويقوي. ولو تأملت في أحاديث الرسول ﷺ، لوجدت الكثير من الأدلة علـى أثـر نظرتك في واقعك؛ مثل قولـه ﷺ: "أنا عند ظن عبد بي"، "تفاءلوا بالخير تجدوه"... إلخ.

كـن علـى يقيـن بـأن الكـون يسـير فـي مسـاره الطبيعي والمفترض له، وأن الأحداث -وإن بدت لك أنها تسـير على غيـر المطلـوب- إلا أنهـا حتمًا تسـير وفق المكتـوب ووفق المسار الذي يحقق الحكمة الإلهية المطلقة. لا تيئس من رَوح الله، ﴿إِنَّهُ لاَ يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾(يوسف:٨٧)، واتـرك التشـاؤم فالله تعالـى نبهنا أنه من أمر الشـيطان إذ قال: ﴿الشَّـيْطَانُ يَعِدُكُـمُ الْفَقْرَ﴾(البقـرة:٢٦٨)، وإذا حدثتـك نفسـك بيأس فردها وقل مقالة سيدنا موسى عليه السلام حين أدركه فرعون، إذ قال: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾(الشعراء:٦٢).

٦- احرص على مصاحبة الشـخصيات الإيجابية، وتجنب المتشائمين والسلبيين: لا أحد ينكر أثر الصاحب على النفس، فالصاحـب سـاحب، "قـل لـي مـن تصاحب، أقـل لك كيف ستشعر".

وقـد نبـه الله تعالـى في أكثر مـن موضع في القـرآن على أهمية اختيار الرفقة لعل من أهمها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللهَ وَكُونُـوا مَـعَ الصَّادِقِينَ﴾(التوبـة:١١٩)؛ فأمر بعد التقوى باختيار الصحبة.

٧- ابنِ لنفسك كيانًا مستقلاً عن مدح الناس أو ذمهم: إذا اعتمدنا في اسـتقرارنا النفسي على مدح الناس أو ذمهم، فلن نعرف الراحة ولا القرار أبدًا.

المـدح والذم وجهان لعملة واحـدة، كلاهما حكم ورأي شـخصي على الآخرين، وينبغي علينا أن نكتسب المناعة من كليهمـا. فالالتفـات للمـدح ما هـو إلا تغذية للغـرور والذي سـوف يكون له الأثر العكسي تمامًا على النفس بحلول أدنى نقد أو ذم.

يجـب علينا أن نعتـاد على التعرف علـى ذواتنا وإعطائها قدرهـا مـن الثقة والإيمان بعيدًا عن نظـرة أو رأي من حولنا. ليـس المقصود الغرور بالنفس، وإنما الوصول إلى قيمة ذاتية ثابتة لا تتأرجح بتأرجح رأي الآخرين.

ولعـل هذا أيضًا مـن منافع تحقيق مبـدأ الإخلاص الذي يدعو إليه الدين. فقد قال العلماء: إن من علامات الإخلاص فـي العمل، أن يسـتوي عندك المدح والـذم. فمن عمل على تحقيـق الإخلاص اكتسـب راحـة النفس، إذ لا يبتغي سـوى رضى الله تعالى.

ويتبـع هـذه النقطة أن تتجنب النقد للغيـر: فإن كثرة النقد علامة على نفسية تتجه نحو رؤية النقص، سواء في النفس أو في الغير، وكلاهما تفكير سلبي غير بناء.

٨- لا تتردد في اللجوء للمسـاعدة إذا شـعرت بالحاجة: إن كل ما ذكرناه مسـبقًا من خطوات، من شـأنها أن تنجح في تبديـد أغلـب حالات الاكتئاب البسـيط والمتوسـط إذا ما تم الالتـزام بأغلب الخطوات بثبات واسـتمرار، والتحلي ببعض الصبر. إلا أن الشـعور بالاكتئاب في بعض الأحيان قد يكون من الحدة، بحيث يصعب على الإنسان أن يتغلّب عليه وحده، ويحتاج إلى معونة من متخصص.

والأدويـة المضادة للاكتئاب ليسـت كما يـدور في أذهان الكثيريـن فـي مجتمعاتنـا، مـن أنها تـؤدي إلى النـوم أو إلى الإدمـان عليهـا... فهي أدوية مثلها كمثـل المضادات الحيوية التـي لهـا برنامج معين في أخذها وتركها باستشـارة طبيب لا أقل ولا أكثر. بل قد يكون لأغلبها أعراض جانبية أخف بكثير من أعراض المضادات الحيوية وغيرها من الأدوية. ■

(*) كاتبة وباحثة كويتية.

أ.د. بركات محمد مراد*



ابن زهر

الطبيب الإكلينكي ورائد علم الأورام

هـو أبو مـروان عبد الملك بـن أبي العلاء بن زُهـر، ولد بـ"أشـبيلية" فـي زمن تقـدره دائرة المعـارف الإسـلامية بأنه بيـن عامي (٤٨٤-٤٨٧هـ). تلقـى علـوم الأدب والفقـه والشـريعة وبلـغ فيهـا منزلـة عالية، ثم علمه أبوه الطـب، ولم يمر وقت طويل حتى بـز أسـتاذه في الطـب وفاقه في كثيـر من مسـائله الدقيقة. ثم سـاعدت ميولـه العلمية على النبوغ السـريع في الطب، فكان أمهـر أطباء أسـرة زُهر، ومن نُطُس أطبـاء العرب، وكان أيضًا أديبًا وشـاعرًا. وقـد خدم الخليفة الموحـدي عبد المؤمن بن علـي، ونـال الحظوة لديـه وألف له كتابًا عـن "الأغذية"، كما ألـف كتبًا أخرى أهمها كتاب "التيسـير فـي المداواة والتدبير" الذي أهداه إلى صديقه وتلميذه ابن رشـد، وقد تمت ترجمته إلـى اللاتينية عام ١٢٨٠م، وتتجلى في هذا الكتاب شـخصية ابن زهر بشكل واضح.

كانـت لـه تجـارب مبتكرة فـي إعـداد الأدويـة ومعالجة المرضـى. بدأ حياتـه العلمية بخدمة المرابطيـن كما كان أبوه

من قبل، وبعد انتهاء عهد المرابطين التحق بخدمة الموحدين. كان ابن رشد الفيلسوف الأندلسي حينئذ، يحتل مركزًا ساميًا في العلوم والفلسفة، فتعرف بالطبيب الناشئ، وقامت بينهما صلة قوية توطدت عُراها على مر الأيام... وكان ابن رشد يقدّر أبا مروان بن زهر، ويقدر نبوغه وعبقريته في صناعة الطب، ولا يفتأ يتحدث عنه في المحافل العامة، ونقل عنه أنه قال فيه: "إنه أعظم الأطباء منذ عهد جالينوس".

كانت وظيفة ابن زهر كمدير للمستشفى، قد أتاحت له فرصة العثور على كثير من جثث الموتى لتشريحها، وقد تمكن من فصل طب العيون عن الطب العام في هذا الوقت المبكر. كان يجري كثيرًا من الجراحات الهامة، إلا أنه كان يأنف من إجراء عمليات الفصد، واستخراج الحصى من المثانة (Talla)، ومع ذلك فقد قام بكثير من العمليات الهامة والناجحة.

ومن ثم يتبيّن لنا تلك التقاليد العلمية التي سادت بعض الأسر النبيلة في الحضارة العربية الإسلامية؛ هؤلاء الذين ثبت عندهم أن يتعلم الأبناء على الآباء والأجداد... وكما سلكت الأجيال السابقة هذا المسلك، نراه هو الآخر يتعلم عن أبيه الصناعة بشقيها النظري والعملي. وبعد طول الممارسة، وصل الحفيد بصواب الرأي وحسن المعالجة وجودة التدبير، تلك التي تميز بها نتيجة اهتمامه بالتجربة في إثبات صحة الدواء وفعالية المعالجة.

وليس أدل على كثرة دربته (تجربته) من أنه أعاد تركيب دواء مركب كان والده قد ركبه للملك، وأمر الوالد بصحة تركيبه... ومثل هذه الحالة تدلنا على الجانب النقدي لدى أطباء بني زهر، وأن التلميذ لا ينبغي أن يكون نسخة طبق الأصل من الأستاذ حتى ولو كان والده، إذ لو تمسك التلاميذ بكل ما لدى الأساتذة، لما تقدمت العلوم وتطورت. ولذلك يقول الباحث "خالد حربي" في مقال له عن أسرة بني زهر الطبية: "وقد قادني البحث إلى الوقوف على جانب هام من جوانب فكره، وهو ممارسته للعمل العلمي الجماعي. فلقد استطاع ذلك الحفيد أن يكوّن جماعة علمية ممتازة ومتعاونة ضمت إلى جانبه أخته وبنت أخته... فكما تعلم هو على أبيه وأسلافه، تعلم ابنه أبو محمد عليه، فأوقفه على كثير من أسرار الصناعة وعملها، من خلال القراءة النظرية لأمهات الكتب الطبية إلى جانب الممارسة العملية".

مؤلفات ابن زهر

جميع مؤلفات ابن زهر تقع في مجال العلوم الطبية، وأسلوب بن زهر في كتاباته أسلوب علمي تعليمي من الدرجة الأولى، وهو ثري بمصطلحاته العلمية المتميزة المختارة بدقة بالغة، والتي تدل على سعة الاطلاع وعمق الخبرة العلمية، وهو أسلوب محبب لأنه مرصع ببعض الطرائف الشائقة، والتعليقات الظريفة التي يسوقها بن زهر من واقع خبراته الشخصية وذكرياته في مهنة الطب.

وعلى الرغم من أنه وضع كتبًا كثيرة في الطب، إلا أنه لم يشتهر منها إلا كتابان؛ كتاب "الاقتصاد وإصلاح الأنفس والأجساد"، وقد شجعه على تأليفه -كما يرى- الأمير إبراهيم بن يوسف. والثاني كتاب"التيسير في المداواة والتدبير"، وقد وضعه بإشارة من صديقه ابن رشد الفيلسوف المشهور. وكان أبو مروان يؤمن بنظرية الأمزجة التي وضعها جالينوس من الناحية النظرية، ولكنه من الناحية العملية كان يؤمن إيمانًا قويًّا بالتجربة وأثرها؛ إذ كان يرى أن التجربة خير مرشد. وله في هذا الكتاب ابتكارات طبية تقوم على التجارب الصحيحة والملاحظات الدقيقة... وبذلك أضاف إلى علوم الطب ثروة علمية جديدة.

وقد كان لابن زهر مؤلفات أخرى مهمة، إلا أنها لم تشتهر مثل هذين الكتابين، وهي كتاب "الترياق السبعيني" ومختصره، وكتاب "الأغذية"، ورسالة كتب فيها إلى بعض الأطباء بأشبيلية في علمي "البرص" و"البهق"، ومقال في "علل الكلى". وله أيضًا كتاب "التذكرة" وضعه لولده في معالجة الأمراض، وفيه نصائح تتصل بالأحوال الجوية وصلتها بالأمراض المألوفة في مدينة مراكش وملاحظات شخصية تستحق الذكر، منها قوله: "إن أحسن علاج للحمى في الأعضاء هي غمس المحموم في الماء البارد". وقد انتقد بشدة تهافت الأطباء على استعمال المسهلات وبيّن أضرارها، فإنما هي سموم يجب تجنّبها. وله أيضًا كتاب "التعليق في الطب"؛ وهو كتاب في الإرشادات الطبية، ومخطوطه محفوظ في مكتبة "تشستربتي" بمدينة "دبلن" عاصمة "إيرلندا".

ابن زهر وكتاب التيسير

أما أهم كتب ابن زهر وأشهرها هو "التيسير في المداواة والتدبير"، ألفه لصديقه الفيلسوف ابن رشد صاحب كتاب

"الكليات في الطب" ليكون الكتابان متممين أحدهما للآخر. وقد ذكر ابن زهر نفسه أنه مأمور في تأليفه (على ما يوضحه الجغرافي والمؤرخ التركي "حاجي خليفة" في كتابه "كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون"). ويرى المؤرخون أن هذا الكتاب قد اشتهر شهرة كبيرة، فـ"المقري" في "نفح الطيب" مثلاً يقول: "وأما كتب الطب، فالمشهور بأيدي الناس الآن في المغرب، وقد سار أيضًا في المشرق لنبله كتاب "التيسير" لعبد الملك بن مروان العلاء بن زهر". وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية بعنوان "Theisir".

ابـن زهر، هـو مَن توصـل إلى دراسات وتشخيصات سريرية (إكلينكيـة) لأول مـرة لمرض السرطان والأورام الخبيثة. يعتبر لذلك، أول من أشار بالوصف الدقيـق إلى الورم الذي يحدث في الصـدر وفي الغشـاء الذي يقسم الصدر بالطول، ويسمى حديثًا بـ"التهاب المنصف".

والنصائح الطبية الثمينة. وقد ألحق ابن زهر بهذا الكتاب مقالة أطلق عليها اسم "الجامع في الأشربة والمعجونات"، وهي عبارة عن مجموعة من وصفات الأدوية والعقاقير والترياقات، وطرق تركيبها ووجوه استعمالها. ويلاحظ أن وضع العلاج في متناول غير المتخصصين أمر معروف في تلك العصور، كما أن وصفات الأدوية المركبة التي أثبتها المؤلف تزيد على الخمسين، وفيها بيان تحضير الأشربة والمراهم والمعاجين. ويعدّ ابن زهر بسبب هذا الكتاب أعظم أطباء الأندلس.

والكتاب يتألف من ثلاثة أقسام، في كل قسم عدد من الرسائل، تختص كل رسالة منها بعدد من الأمراض. ويميل ابن زهر في هذا الكتاب إلى الاقتصاد والوضوح؛ عالج فيه مختلف الأمراض الباطنية والجلدية بالإضافة إلى الجراحة. فقد بحث فيه قروح الرأس وأمراضه وما يعرض له من الخراجات، وأمراض الأذنين والأنف والفم والشفاه والأسنان والعيون، وأمراض الرقبة والرئة والقلب والنقرس، والحميات والأمراض الوبائية.

ووصف فضلاً عن ذلك، خراج الحيزوم وصفًا دقيقًا لأنه كان مصابًا به، كما وصف التهاب غشاء القلب وفرّق بينه وبين التهاب الرئة، وناقش فيه كتاب "القانون" لابن سينا، والكتاب "الملكي" أو كما يسمى أيضًا كتاب"كامل الصناعة" للمجوسي، واتهمهما بالإطالة. كما كان له اهتمام كبير ببيان فضل التغذية الصناعية، وشرح طريقتها بدقة ومهارة فائقة سواء أكانت بطريق الحلقوم أم بطريق الشرج.

ولا شك أن تأليف ابن زهر مثل هذا الكتاب في ذلك العصر، عمل أصيل دعاه إلى إنجازه ابن رشد. ويذكر ابن زهر في مقدمة الكتاب، أنه ما أقدم على تأليفه إلا بسبب نقص الكتب الطبية وإلحاح الإخوان عليه في تأليفه. وقارئ هذا الكتاب يعجب باستقلال صاحبه بآرائه وبجرأته على نقد الخاطئ من آراء المتقدمين السابقين، وهو فضلاً عن ذلك، كتاب عامر بالملاحظات الشخصية والأفكار الخاصة

إنجازات ابن زهر الطبية

نجح ابن زهر في علاج "شلل البلعوم" (Pharyngoplegia) بثلاث طرق مختلفة أخذ بها الأطباء من بعده، ومنها تغذية المصاب صناعيًا بأنبوب من الفضة ينقل الغذاء من البلعوم إلى المعدة.

كان ابن زهر من أوائل الأطباء الذين وصفوا خراج الحيزوم، والتهاب التامور (التهاب غشاء القلب) اليابس والانسكابي، وميز بينه وبين "التهاب غشاء الرئة" (Plura).

تصدى باقتدار وبُعد نظر، لدراسة الأمراض النفسية، واعتبرها حاصلة عن عوامل عديدة منها الصدمات المتوالية التي يتعرض لها الإنسان وصحة الجسم. ونصح بحسن معاملة المريض وإعطائه العقاقير المهدئة، وإسماعه الموسيقى، ونصح -كذلك- الطبيبَ المعالج بمعرفة حالة مريضه، لأن ذلك يساعد على الشفاء.

كان رائدًا في مجال التخدير، إذ كان يخدر مرضاه بطريقة الاستنشاق بالإسفنج المنوّم؛ وهو إسفنج طبيعي يغمر في مزيج من المواد المنوّمة والمواد العطرية كالأفيون والسيكران والزوان والشيلم، ثم يجفف ويحفظ، وعند الاستعمال يبلل بالماء فيصبح مشبعًا بالمحلول المخدر، ويستخدم في التخدير بوضعه على أنف وفم المريض أثناء الجراحة.

اتخذ ابن زهر موقفًا حازمًا ضد استخدام المسهلات، وهاجم تهافت الأطباء على استعمالها قائلاً: "ما سقيت

مسهلا قط كدواء إلا واشتغل بالي قبله بأيام وبعده بأيام، فإنما هي المسهلات سموم". وأوصى الأطباء بالتلطف في أدويتهم ومراقبة تأثير الدواء مدة ثلاثة أيام، فإذا أفاد أمكنهم زيادة الجرعة.

وصف ابن زهر طفيل الجرب (وهو في حقيقة الأمر نوع من مفصليات الأرجل) الصغيرة الشبيهة بالعناكب، والتي تسمى "الحلم" (Mites)، وقد أشار إليه باسم "قمل الجرب". لكن تبين أن الطبيب "علي بن ربن الطبري" قد سبقه إلى وصف ذلك الطفيل في القرن العاشر الميلادي.

وتعرض ابن زهر في حياته العملية الطبية لجراحات المخ والقلب والكبد والمعدة والصدر، وكتب عنها في مؤلفاته.

لابن زهر إنجازات رائدة باهرة في مجال أمراض الحلق والحنجرة، إذ نجده في كتابه "التيسير" يشرح كيف يمكن تشخيص الكثير من هذه الأمراض، بطرق بسيطة مبتكرة تعتمد على مقدرة الطبيب وقوة ملاحظته وفرط إحساسه. وهذه تعتمد على الفحص بالعينين المجردتين، وتحسس الحلق والحنجرة والأحبال الصوتية بالأصابع، ورصد أية تغيرات تطرأ على ملمس هذه الأعضاء، وعلى تكوين سطحها وعلى كيفية حركة أجزائها. وفي كتاب "التيسير" أيضًا، نجد ابن زهر يشرح كيف يمكن بالنظر واللمس بالأصابع، تشخيص الكثير من الأمراض التي تصيب هذه الأعضاء، بما في ذلك الأمراض النادرة الحدوث، مثل الأورام الحميدة أو الخبيثة وشلل الأحبال الصوتية.

لقد كانت معالجات ابن زهر مختارة، وتدل على قوته في صناعة الطب، وله نوادر في تشخيص الأمراض، ومعرفة آلام المرضى دون أن يسألهم عن أوجاعهم، إذ كان يقتصر أحيانًا على فحص أحداق عيونهم، أو على جس نبضهم، أو على النظر إلى قواريرهم (قناني البول).

وتدل آثاره التي وصلت إلينا، على أنه كان جيد الاستقصاء في الأدوية المفردة والمركبة، حسَن المعالجة، له ابتكارات -استحدثها هو- لم يصل إليها أحد في الإسلام أو قبل الإسلام. إنه طبيب إكلينكي، يعتمد على الملاحظات السريرية، ومعرفة أعراض المرض، واستقصاء أسبابه وعلله من أجل علاج الأسباب، لتختفي الأعراض. ولذلك فقد توصل بفضل قياساته الطبية والتجريبية الشخصية إلى الكشف عن أمراض جديدة لم تدرس من قبل. فقد اهتم بالأمراض الرئوية، وأجرى عملية القصبة المؤدية إلى الرئة، وتمكن هو بعد ذلك من تشريح القصبة في مرض الذبحة، واستعمل أنبوبة مجوفة من القصدير لتغذية المصابين بعسر البلع، واستعمل الحقن المغذية، واكتشف طفيلية الجرب وسماها "صؤابة"، كما بسّط طرق العلاج القديمة، وأوضح أن الطبيعة تكفي وحدها في الغالب لعلاج الأوجاع والأورام (الاعتماد على مناعة الجسم الطبيعية). وقد توصل إلى دراسات وتشخيصات سريرية (إكلينكية) لأول مرة لمرض السرطان والأورام الخبيثة. وهو لذلك أول من أشار بالوصف الدقيق إلى الورم الذي يحدث في الصدر، وفي الغشاء الذي يقسم الصدر بالطول، ويسمى حديثًا بـ"التهاب المنصف".

وقد عالج ابن زهر "الختر" وهو جرب العين عند العرب، والرمد الحبيبي حديثًا، بواسطة الجراحة بشق شريان الختر. وقد نادى بالطب الوقائي في مقدمة كتابه "التيسير في المداواة والتدبير"، حيث قدم أكثر من عشرين نصيحة تتعلق بحفظ الصحة، وقال إنها تهدف إلى "إدامة أسباب الصحة ودفع أسباب الأسقام". وهو أول من وصف التهاب غشاء القلب الرطب والناشف، وفرّق بينه وبين أمراض الرئة.

ولابن زهر كلمات طبية رائعة مثل قوله: "الخبرة وحدها هي المرشد، ومحك الممارسة المعقولة لتبرئة ساحة الأطباء أو إدانتهم يوم القيامة"، وقوله: "ليس صحيحًا تفوق بعض الأعضاء على بعض، ولا تفوق القلب والمخ على ما عداهما، إنما الكل في ارتباط وانسجام تام"، وقوله: "وأنبل الحواس العين".

ومن هنا لا يكون غريبًا أن نجد المستشرقة الألمانية "زيغريد هونكة" في كتابها "شمس العرب تسطع على الغرب" أن تقول: "إن الطبيب الإشبيلي ابن زهر، المتحدر من عائلة عريقة في الطب تمتد فروعها حتى تصل إلى جذورها العربية الأصيلة، قد وضع كتابه "التيسير في المداواة والتدبير" وهو موسوعة طبية يظهر فيها تضلع ابن زهر من الطب وموهبته فيه.

لقد أضاف ابن زهر كثيرًا من الاكتشافات العلمية، وأتقن كثيرًا من الممارسات الطبية العملية التي جعلت من صاحبها أشهر وأكبر أعلام الطب العربي والإسلامي في الأندلس، وعملت على تطور وتقدم علم الطب في العصور اللاحقة حتى وصلت إلى الغرب الذي عرفه باسم (Avenzoar). ■

(*) رئيس قسم الفلسفة والاجتماع، كلية التربية، جامعة عين شمس / مصر.

أ.د. عمار جيدل*

على قدر علو همتك تكون عند الله منزلتُك، وأعلا مقامات الهمم التضحيةُ والفداءُ من أجل إسعاد الآخرين.. آثِرْ سعادة الآخرين على سعادتك، وطأْ بقدمك حتى كرامتك، وليكن شرفُك من شرف أمتك.. واكظم غيظك، واكتم آلامك، واغضب لأمتك ولا تغضب عليها، وازْأرْ لا لإخافتها ولكن لإخافة أعدائها.. فتلك هي التضحية التي لا تضحية قبلها ولا تضحية بعدها.

(الموازين)

* * *



أسس بعث الفعالية
في فقه محمد البشير الإبراهيمي

يجد المتأمل المتدبر فيما كتبه العلامة محمد البشير الإبراهيمي (١٨٨٩م-١٩٦٥م) أنه أمام نص أدبي رفيع، يكاد أن يكون من نصوص عصر الاحتجاج اللغوي جيء به خصيصًا إلى هذا العصر، فتحكّمه بناصية اللغة العربية وآدابها قلّ أن تجد له مثيلاً بين شيوخ زمانه وأقرانه شرقًا وغربًا، قال الشيخ محمد الغزالي -رحمه الله- في وصف تحكّمه بناصية اللسان العربي من

خـلال محاضرة ألقاها: "كان تمكّنه من الأدب العربـي بارزًا في أسـلوب الأداء وطريقـة الإلقاء، والحق أن الرجل رُزق بيانًـا سـاحرًا، وتأنّقًا في العبـارة يذكرنا بأدباء العربية في أزهى عصورها".

وإنْ تعجـب مـن لغتـه فالعجـب الأكبـر يتجلى في المباحث التي دبّجها يراعـه، فمـا مـن فـن كتب فيـه إلا كان فيه فارسًـا لا يبارى كأني به لا يحسـن غيـره. وبالرغـم من الميادين الفسـيحة التي تجشّـمها فقد ظلّت ميـزة التحكّم والضبـط المعرفـي والمنهجـي ميـزة عامـة. وتلاحـظ حيـن القـراءة لـه، أن للرجـل ذكاء وقّـادًا ومؤهّـلات ذهنيـة تولّدت عنها نباهة عقلية وضبط منهجي من المصاف العالي، يدفع إلى الاعتراف له بالقدرة على الضبط التي برّ بها الأقران وفـاق بهـا علمـاء الزمان من الشـرقيين والغربييـن، ولم يكن اهتمامه بها لأجل تفكّه أو تندّر أو رغبة في غلبة بقدر ما كان متعلّق الهمّة ببعث فعالية مفقودة.

إن الحيـاة العمليـة تبنـي على الحيـاة العلميـة قـوّة وضعفًـا وإنتاجًا وعملاً، وإن أفراد الأمة لا يكونـون أقوياء في العمل إلا إذا كانـوا أقويـاء في العلم، ولا يكونون أقويـاء في العلم إلا إذا انقطعوا له ووقفوا عليه الوقت كله... إن العلم لا يعطي القياد إلا لمن مهـره السهـاد وصرَف إليه أعنّة الاجتهاد.

تحويل المعارف إلى فعالية

يتجلـى فـي مجمل ما كتـب، اهتمامه البالغ بمسـألة الفعالية؛ فتكاد مسألة الفعالية أن تكون طابع مجموع مسموع ومكتوب محمد البشير الإبراهيمي، فلا تكاد تجد نصًّا غير ناطق بسؤال الفعالية في مجموع ما نقل عنه. بلغ الاهتمام بمسألة الفعالية فـي فقـه الرجل مـداه، فيصرّح بهـا في التراجـم ويعمل على اسـتجلابها فـي ميادين المباحثـة والنظر والتأصيـل، ورأس مداخـل الفعالية الإحسـان والذي مـن مقتضياته أن لا يكتب الراغـب فـي تحصيـل الفعاليـة فـي غيـر مـا يتحكّـم فيه من المعارف ويحسن بحث موضوعه.

يؤكّـد حضـور سـؤال الفعاليـة مـا اقترحـه علـى كتـاب "البصائـر" (لسـان حال الجمعية)، فنصحهـم بالكتابة في بيان وشـرح حقائـق الديـن وفضائلـه، وآداب الإسـلام وحكمه، والسنن الميّتة بإحيائها نشرًا ونصرًا بعد إحيائها علمًا وعملاً، ورفـع الأصـوات بلـزوم إحيائهـا... وفـي كل ذلـك تصريح ببعـث الفعالية المفقودة في درس تلك المباحث، مع التذكير بوجـوب نقلها من المباحثة النظرية إلى التنفيذ العملي، ويتجلى المقصد نفسـه من اهتمامه باسـتجلاب العبر والعظات مـن مباحـث التاريخ وسـير أمجاده مع الحـث على ضرورة إحيائهـا. ويتوقّف نجاح تلك الجهود على تطهير النفوس مـن الأمـراض الاجتماعيـة والنفسـية، لهـذا ينصـح بالتوقّـف عنـد الأمـراض الاجتماعية وجوائحها النفسية والخلقية التـي حجبت عنا وجـه الحياة، وأخفت علينـا مسـالكه، وينصح بعـدم الاكتفاء بالتوقّـف النظـري البحـث، بـل يجـب الانتقال إلى تشـريح الداء وبيان الدواء، تيسـيرًا للتمزيـق العلمـي والعملـي للجلابيـب التي أضفاهـا الجهل على عقولنا فلـم نفقه معنى الحيـاة وفقـه الحياة، ليس من قبيل المعارف التي تحشـى بها الـرؤوس ويتباهى بها في المجالس، بل لأجل الفعالية... ولا يتوقّف في بعث الفعالية عند الميادين المشار إليها وفق الرأي الشـائع، بل ينتظر بيان العلم في آفاقه الواسـعة، مع الترغيب فيـه ودعـوة الغافليـن أو المتخلّفيـن عـن ركابه إلى التشـمير عن سـاعد الجد، فيسـارعوا إلى التمسّـك بأسـبابه ويأخذونه مـن أقطابه. ويختم تلك الميادين الباعثـة على الفعالية باللغة وعلومهـا وآدابهـا فيدعوهـم قائـلاً: "ابحثوا ونقّبـوا واحدوا ركابها وطربوا، واسعوا لبيان فضلها سعيكم لتعليمها، وأشربوا قلوب أولاد هذه الأمة: أنّه ما غرّد بلبل بغير حنجرته".

وفـي مقـام الفعاليـة يَكْبـرُ عليـه أن تتحـوّل المعـارف الإسـلامية أشـباحًا بلا أرواح بفعـل التقليد وقلّة الاسـتقلال لفقـد الاسـتدلال، والأدهى مـن كل ذلك أن يلقـى الاهتمام بالاسـتدلال الـذي هـو عنـوان الاسـتقلال، التضييـق عوض المباركة والتأييد. قال الأستاذ في سياق تأبينه للمرحوم محمد بن شـنب (أحد أعلام الجزائر الأفذاذ): "أما أسـلوب البحث العلمـي وبنـاؤه علـى المحاكمـة والنقـد فهو ظاهـرة الرجل الخاصة به ونعته الصادق"، ثم ينتقل إلى بيان سبب الإعجاب بـه فيقـول: "السـبب هـو أنني نظرت فـي جميع مـا لدينا من تراث الأوائل مما نسمّيه علمًا، وأمعنت في تتبّع أطوار العلوم

الإسلامية من النقطة التي وصل إليها مداها في الاتساع إلى المنشأ الأصلي، فوجدت أن جميع علومنا الإسلامية في جميع أدوارها يعوزها الاختبار والنقد، يعوزها الاستقلال في الرأي، تعوزها الشجاعة... إلى أن جاءت عصور الانحطاط؛ فكان ذلك الإعواز بذرة فاسدة للتقليد في جميع علومنا حتى أصبحت أشباحًا بلا أرواح، فلا عجب إذا أكبرت الرجل وأكبرت كل من يوفّق إلى غرس هذه الملكة فيه في نفسه."

الفاعلية المنشودة برنامج عملي عام

مقصد الفعالية؛ أن نتحوّل من مجتمع التفكّك والتخاذل وضعف البصائر في الدين والدنيا إلى مجتمع خاص منتج لنهضة منظّمة في جميع لوازم حياتنا الاجتماعية والخاصة. وألزم هذه اللوازم أربعة: الدين والأخلاق والعلم والمال، وهو أصل ما ترمي إلى تحقيقه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بطريق إرشاد الأمة إلى هداية الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح.

ذكر الأستاذ أنّ الإسلام لارتكازه على مبدأ الفعالية، دفع أبناءه بروحانيته العنيفة إلى ميادين الحياة بعد أن عرّفهم بمعاني الحياة، دفع الأبطال إلى الفتح وجعل الرفق رديفه، ودفع أولي الهمم إلى الملك وجعل العدل حليفه، ودفع العلماء إلى التربية وجعل الإصلاح غايتها، ودفع الأغنياء إلى بناء المآثر وجعل عزّة الأمة نهايتها، فَسَدّ كل واحد ثغرة وأبقى فيها الآثار الخوالد، أبقى الأبطال تلك الفتوحات التي هي مفاتيح ملك الإسلام، وأبقى الخلفاء تلك السير التي هي جمال الأيام، وأبقى تلك الأسفار الكريمة التي عطر التاريخ أزهاره، وأبقى الأغنياء هذه المعاقل الباذخة التي هي بيوت الله".

بيّن الأستاذ أنّ الفعالية المنشودة برنامج عملي عام، يفرض على المسلم الهيمنة على قسمي الحياة فيكون سيّدًا في الحياة العلمية والحياة العملية، ولكنّ السيادة في الثانية متوقّفة على السيادة في الأولى، ذلك أنّ "الثانية منهما تنبني على الأولى قوّة وضعفًا وإنتاجًا وعملاً، وإنكم لا تكونون أقوياء في العمل إلا إذا كنتم أقوياء في العلم، ولا تكونون أقوياء في العلم إلا إذا انقطعتم له ووقفتم عليه الوقت كله... إن العلم لا يعطي القياد إلا لمن مهره السهاد وصرَف إليه أعنّة الاجتهاد".

أهمّ عناصر التأسيس للفعالية التعلّمُ. والأمة التي لا تتعلّم يغتالها الجوع العقلي، والأمة التي لا تعمل يغتالها الجوع البدني، لهذا فالأمة التي تتعلّم هي أمة المستقبل، وأمة المستقبل هي أمة صحيحة العقول، صحيحة العقائد، صحيحة التفكير صحيحة الأبدان، صحيحة الأعمال.

أسس بعث الفعالية

١- العودة إلى هداية الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح، والتركيز على الجوانب الهدائية -وفي ذلك لفت نظرٍ إلى ترك المباحثات النظرية التي لا طائل منها في حاضر الأمة ومستقبلها- والتركيز في تفسير القرآن على تفهيم معانيه وأحكامه وحكمه وآدابه ومواعظه والتفهيم... تابع للفهم، فمن أحسن فهمه أحسن تفهيمه. وفهم القرآن يتوقّف -بعد القريحة الصافية والذهن النير- على التعمّق في أسرار البيان العربي، والتفقّه لروح السنة المحمدية المبيّنة لمقاصد القرآن، الشارحة لأغراضه بالقول والعمل.

قصارى ما يطلب في هذا الباب، التركيز على لباب العلم والرمي إلى أغراضه السديدة، واطّراح القشور وما لا محصول له من المباحث، وإيثار العلم المفهوم على العلم المحفوظ.

٢- التأسيس لثقافة الاستقلال في الرأي بتشجيع ثقافة الاختبار والنقد والاستدلال، ولا طريق لبلوغها من غير الشجاعة الأدبية والنفسية، وتكاد آثاره أن تكون ناطقة بهذا المقصد، ولكن الخلوص إلى عقلية الاختبار والنقد ثم الاستدلال تأسيسًا للاستقلال في الرأي والمحاكمة، بحاجة إلى صناعةٍ تستوجب إعادة النظر في طرائق التعليم ومصنفاته ومستوى تحصيل معلميه. وقد بذل الأستاذ جهدًا مشكورًا لأجل تحقيق هذا القصد بالتوجيه والإرشاد والتنظيم، وكان القصد من تلك الأعمال الجليلة، دفع عقلية "سلّم تسلم" و"سلّم للرجال في كل حال". قال الأستاذ: "فالعزّة اللامعة في جبين هذه النهضة العلمية هي اقتران العلم بدليله، فأصبح علماؤنا يعملون بالدليل، ويدعون إلى الدليل ويطالبون بالدليل، ويحكمون بالدليل ولو على أنفسهم".

٣- التأكيد على أن الحياة الدنيا للعاملين وأن العاقبة في الآخرة للمتّقين، وكلاهما برنامج عملي يتأسس على الفعالية

في شعاب الحياة. وفي هذا الرأي توجيه النظر إلى البذل في شعاب الحياة، فالدنيا يأخذ البشرُ منها بقدر ما بذلوا لتذليلها على وفق أمر ربها.

٤- ينتظر من أفراد الأمة السعي والاقتناع التام بأن العناصر الضعيفة محكوم عليها بالذوبان وفق سنة الله في الكائنات، وهذا يفرض أن تملك الأمة عناصر القوة وتدفع عن نفسها عناصر الضعف، ولا مطمع في إنشاء القسم الأول ودفع الثاني بغير أمة تعيش الفعالية في أعمق أعماقها. وأهمّ عناصر التأسيس للفعالية التعلّم. والأمة التي لا تتعلّم يغتالها الجوع العقلي، والأمة التي لا تعمل يغتالها الجوع البدني، لهذا فالأمة التي تتعلّم هي أمة المستقبل، وأمة المستقبل هي أمة صحيحة العقول، صحيحة العقائد، صحيحة التفكير صحيحة الأبدان، صحيحة الأعمال.

٥- الاستفادة من الأمم المتقدمة في العلم والمعرفة والنظام، فخذوا منها العبرة، وخذوا من مصائرها العظة... فالنظام أساس النجاح في التربية التعليمية والاجتماعية، ونظامنا يستوجب الإصلاح في كلّ مناحي عملية التعليم ثم الحياة، ولا ضير على الإطلاق من الإفادة من التجربة الإنسانية في مجال التنظيم.

٦- الأخلاق بها يبزّ المسلمون غيرهم من الأمم الأخرى: العلم وحده مهما تشعّبت أغصانه، وتفرّعت أفنانه، وأسلس عصيّه حتى فتحت مغلقات الكون، لم ولن يغن عنها فتيلاً مما تغني الأخلاق والفضائل. إنّ العلم لا ينهى مفسدًا عن الإفساد، ولا يزع مجرمًا عن الإجرام، ولا يميت في نفوس الأقوياء غرائز العدوان والبغي على الضعفاء، بل ما زاد المتجرّدين من الفضيلة إلا ضراوة بالشر، وتفنّنا في الإثم... لهذا يحث الأستاذ الإبراهيمي على جعل الفضيلة رأسمال نفوس التلاميذ وجعل العلم ربحًا. وعمدة انسياب الأخلاق في ضمائر المتلقين تخلُّق المرشد بالخلال التي يدعو إليها. لهذا ينصح الأستاذ لأجل تيسير فعالية جنود الإصلاح في عملية الإصلاح، أن يعتنوا بإصلاح أنفسهم ومداواتها من داء الأنانية والغرور والتحلي بالأخوة، والتعاون والتساند والتضامن.

توجيه الأمة للصالحات وتربيتها التربية العقلية والروحية المثمرة، ورياضتها على الفضيلة الشرقية الإسلامية، وتصحيح نظرتها للحياة، ووزنها للرجال، وتقديرها للأعمال، وتحقيق روح التآخي بين مكوّنات المجتمع، ومحبّة إخوانهم في العلم، وأوثق وسيلة للتآخي والمحبّة، الاتصال والتعارف ثم التعاون، ودعوتها إلى التطوّر العلمي الذي وسيلته العمل والإنتاج والدخول في الميادين العامة والتغلغل في شؤون الحياة". وهذا يفرض البعد عن الأساليب الشائعة بين علماء زمانه، إذ كان ديدنهم الإجابة عن الأسئلة دون توقّف عند أسبابها وطرق دفعها، ذلك أنهم رجال انقطعت الصلة بينهم وبين أهل زمانهم... وبهذه السيرة التي كانوا عليها خرجت الأمة من أيديهم إلى أيد لا تحسن قيادة الأمة.

٧- تشجيع التخصص العلمي والابتكار والمطالعة المستمرة، قال الأستاذ: "الحقَّ أقول إن شبابنا كسول عن المطالعة، والمطالعة نصف العلم أو ثلثاه. فأوصيكم يا شباب الخير بإدمان المطالعة والإكباب، ولتكن مطالعتكم بانتظامٍ حرصًا على الوقت أن يضيع في غير طائل، وإذا كنتم تريدون الكمال فهذه إحدى سبل الكمال.

٨- إتقان اللغة العربية علمًا وتعليمًا، وإجادتها تكلّما وكتابة وخطابة، فالنهضة تقوم على ألسنةٍ تنثر دررًا من العلم، وألسنةٍ تنفث السحر من البيان، وأقلامٍ تسيل رحمة في مواطن الرحمة وتمجّ السمام أو تنثر السهام في مواطن الغضب للحق و الذود عن الحق، ولا طريق لتصوير تلك الحقائق بغير التحكّم في اللسان العربي. ■

(*) كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر / الجزائر.

المراجع

(1) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، لأحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٧، بيروت.

والعلامة محمد البشير الإبراهيمي، هو من أبرز أعلام الإصلاح في العالمين العربي والإسلامي. كان صدّاحًا بما انتهت إليه قناعاته، ولا يخاف في إبدائها لومة لائم، ترأس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بعد وفاة الشيخ الرئيس عبد الحميد بن باديس (١٦/٠٤/١٩٤٠م). وكانت وفاة الإبراهيمي يوم الخميس ١٨ من محرم ١٣٨٥هـ، الموافق ٢٠ من مايو١٩٦٥م.



علوم

أ.د. عرفان يلماز*

الكنغر

ولادة قبل النمو

طابت أيامك أيها الإنسان... أنا "الكغنر"، المخلوق المتميز عن باقي المخلوقات بطريقة الإنجاب والتكاثر. معرفتك بي حديثة العهد مقارنةً بالحيوانات الأخرى التي عرفتَها من زمان بعيد؛ فمنذ آدم عليه السلام وأنت تعرف آلاف الكائنات الحية على تربة هذه الأرض؛ كالخيول والكلاب والقطط والطيور والأسماك والحشرات والزواحف وكثير مما خلق الله تعالى، إذ كانت تعيش على نفس الأرض التي عشتَ عليها في أوراسيا أي الدنيا القديمة، أما معرفتك بي -أنا الكنغر- وبأستراليا، فلم تتجاوز المئتي سنة، ولكن أنا أعرفك من زمن بعيد. فقد عشنا آلاف السنين مع "الأبوريجين" (سكان أستراليا الأصليين) الذين جاؤوا إلى هنا من قارة آسيا قبل ثلاثين ألف سنة تقريبًا. إن "الأبوريجيون" هولاء، كانوا أناسًا مسالمين قنوعين لا يصطادون إلا بقدر احتياجهم، وذلك لعدم الإخلال بالتوازن البيئي. وما إن ازدادت الرحلات الاكتشافية الأوروبية لعالمنا البِكْر الذي لم تمسه الأيدي المدمّرة، حتى فقدْنا الراحة والطمأنينة، ولم نعد نعرف العيش الرغيد في وطننا كما كنا من قبل.

ننتمي نحن الكناغر الذين نعيش على القارة الأسترالية إلى "الثدييات الجرابية" (Marsupialia). وقد خلق ربنا النبات في هذه المناطق مناسبًا لطبيعتنا، حيث يختلف كثيرًا عن نبات المناطق الأخرى. ولابد أن أذكر في هذا الصدد، أن أول حيوان مفترس جاء به سكان هذه المنطقة من آسيا إلى هنا، هو حيوان "الدينغو". إنكم -أيها البشر- تطلقون اسم



"الثديات الحقيقية" (Eutheria) على الحيوانات "المشيمية" (Placentalia) لتميّزوها عنا. وإن أهم فرق بيننا أن القدرة الإلهية منحت الثديات الحقيقية رَحِمًا واحدة. فالبيضة عند هذا النوع، التي تبيضها الأم والتي تتحول إلى "عَلَقة" نتيجة التحامها بالنطفة المحمولة من قِبل السائل المنوي، تتشبث بجدار الرحم وتعشش فيه كالشجرة التي تتشبث بالتربة بجذورها، ثم تبدأ بالانقسامات لتتكاثر الخلايا وينمو الجنين وفق برامج الشيفرات الوراثية المقترنة بها. ومن أجل النمو المستمر مع التحولات المتواصلة داخل بطن الأم دون أي خلل، يتم تغذية الجنين عن طريق المشيمة التي تلتقي فيها الأوعية الدموية للأم بالأوعية الدموية للجنين. وتضع الأم الجنين بعد زمن يستغرق أسابيع أو شهورًا أو سنواتٍ تبعًا لحجمها وضخامتها، وبعد اكتمال أجهزة الجنين وأعضائه بكل التفرعات الدقيقة، وبانقطاع الحبل السُّرِّي الذي يصل المشيمة بسرة الجنين عند الولادة، يبدأ المولود بالتنفس، ثم بتناول الغذاء بنفسه دون الحاجة إلى الحبل السُّرّي. يولد الجنين عاجزًا بلا أسنان، فيُحدِث ربنا ذو الرحمة المطلقة تغييرات هرمونية في الأم ليدِرّ ثديها حليبًا يَرضعه صغارها، إذ يحتوي هذا الحليب على كافة الفيتامينات والأغذية العضوية وغير العضوية، ويحتوي كذلك على الخلايا الليمفاوية التي تقي الصغير من الأمراض. وقد تختلف فترة الرضاع أيضًا من نوع لآخر، وينقطع حليب الأم عندما يبلغ الصغير مبلغ الطعام ويتعلم طريقة الحصول عليه. وسرعان ما يدبّ في الصغير التوجيه الإلهي على شكل أنشطة وتصرفات معقّدة تبدو وكأنه تعلَّمها في بطن أمه، ليستطيع البقاء على قيد الحياة.

لكننا نحن الثدييات الجيبية أو الكيسية، خُلِقنا بآلية مختلفة للإنجاب والتكاثر؛ إذ نملك رحمين اثنتين، ودورة تناسلية تُدار بالهورمونات بطريقة مختلفة. وقد تجلى ربنا بأسمائه الحسنى المتنوعة علينا، فأحدث في سجل الثديات تغييرات طفيفة تخضع لها في مراحل التكاثر والنمو، وبذلك يظهر بأنه وحده صاحب القوة والقدرة المطلقة، يخلق ما يشاء وكيف يشاء، يخفي في كل مخلوق من خلقه من البدائع ما لا يمكن إدراكها إلا بالتفكر والتدبر.

الولادة قبل النمو

نضع نحن الكناغر صغارنا عند بداية التكوين الجيني وقبل نموّ أرجلها الخلفية وأعينها وذيولها، ويتراوح طول الواحدة منها ما بين ٥-١٥مم. ولو حصل هذا الأمر عند الثديات المشيمية لَسقط الجنين ومات، أي لأسقطت الأم جنينها كما تقولون. وصغيرنا هذا الذي يولد دون إتمام نموه، سرعان ما يتعلق بشعر بطن أمه ويزحف عليه بذراعيه القويتين، ثم يدخل الجراب من دون أية مساعدة ليصل إلى حلمات الحليب الأربعة الموجودة فيه، فيتمسك الصغير -الذي لم تُخلق عيونه بعدُ- بحلمة منها بقوة... هذا ويكون الجراب قد جُهِّز من قِبل الرحمن الرحيم، بشكل يلبي كل ما يحتاجه هذا الصغير العاجز من غذاء وماء.

نتوزع -نحن الكناغر- إلى ٤٥-٥٠ فصيلة. فالكناغر الصغيرة منّا تسمى بـ"الكنغر الفأر"، والكناغر المتوسطة الحجم بـ"الولب"، والكناغر الكبيرة بـ"الرمادي" وأنا من المنتسبين إلى الفصيلة الأخيرة. يظل صغارنا داخل جواربنا أو جيوبنا تأكل وتنام مدة تتراوح ما بين ١٥٠-٣٢٠ يومًا تبعًا لأحجامنا، وبعد هذه الفترة -حين يكمل نموها- نسمح لها بالخروج من الجيب لتتنزه لفترات قصيرة. وإن كنا نحن الكناغر الكبيرة نمنع صغارنا من العودة إلى الجيب مرة أخرى، فهذا لا يعني أننا نتخلى عنها بالمرة، بل نسمح لها بإدخال رؤوسها للرضاعة فقط، ولابد لنا أن نفعل ذلك حتى

يتعلـم صغارنـا الاعتماد على أنفسـهم في الحيـاة، وحتى يتم إعداد الجيب للمولود الجديد. ولعلكم تتساءلون في عجب: حملٌ في فترة الرضاع؟! أمرٌ تحار له العقول أليس كذلك؟

تعاقب الحمل

إن رَحِم الكنغر تستعيد نشاطها بعد الولادة بأيام قليلة، فتعيش حالـة الطمث من جديد، أي إن الكنغر الولادة لا تعرف حالة النفـاس التي تعرفونها في نسـائكم أنتم البشـر بعد الولادة... قلـتُ حالة الطمـث، لتقريب الصورة إلـى أذهانكم، فالطمث الذي يستمر في نسائكم حوالي ٢٨ يومًا، تكتمل عندنا خلال أيـام معـدودات، ولذلـك تكـون الكنغر مسـتعدة للحمل من جديد في أيام قلائل بعد الولادة! وإن لم يكن الصغير قد بلغ مرحلـة الخروج من الجيب، فإن الجنين يبقى -بتوليف رباني قدير- على شـكل بيضة حديثة العهد باللقاح. وهذا "السُّبات الجنيني" الذي ينتظر فيه الجنين اكتمال نمو أخيه في الجيب، يتم بنظام هرموني فريد بأمر من الرحمن الرحيم.

وعندما يكتمل نمو الكنغر الصغير ويخرج من الجيب بعد شـهر تقريبًا، تفيق البيضة من سباتها لتعشش على جدار رحم الأم وتستهل نموها وانقساماتها، وقبل الولادة بيوم أو بيومين، يكون صغيرنا السـابق قد استعد لمغادرة الجيب. يلد المولود الجديـد قبل اكتمال نمـوه أيضًا، ويزحف نحو الجيب بتوجيه فطـري إلهي متمسـكًا بشـعر بطن أمـه، ويلتـزم حلمة حليب مناسبة له كما فعل كبيره المولود الأول.

أم واحدة وتعددية في نوعية الحليب

يلتزم المولود الجديد أحد ثديي الأم بتقدير إلهي عجيب، لأن الثـدي الآخـر يدرّ حليبًا صالحًا للمولود السـابق غير الصالح للمولود الجديد. ولا نسـمح بعدهـا للصغير النامي بالدخول إلـى الجيب خوفًا مـن إضرار المولود الجديد، بل نسـمح له فقط أن يُدخل رأسـه ليحتسـي الحليب من الثدي الصالح له. وهكـذا تعيش إناثنـا هذه الأحوال الثلاثة فـي آن واحد، ففي الوقـت الذي يرضع فيـه الكنغر الصغير الذي خـرج للتوّ من الجيـب؛ تُرضِع الوافد الجديد إلى الجيب وتحافظ عليه حتى يكتمـل نمـوه، ولعله كان في رحمها بيضة ملقحة في سـبات تنتظر دورها في النمو.

تتغير نوعية الحليب بما يناسـب نمـو الصغار الثلاثة، كلٌّ ينـال غـذاءه الصالـح له مـن أم واحدة ومن حلمـة مخصصة



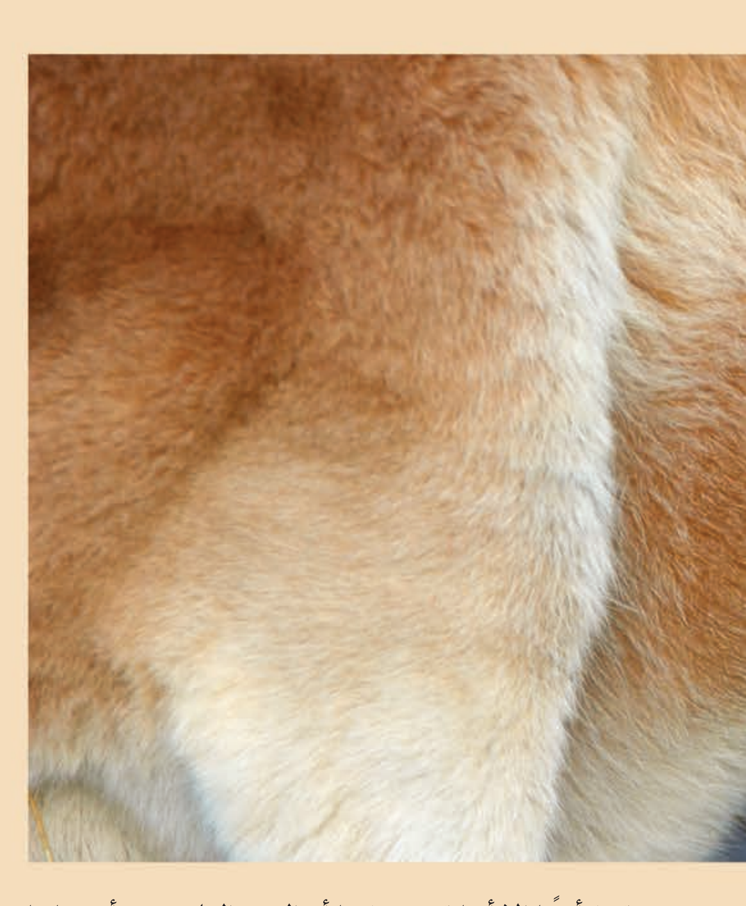
لـه دون التعـرض إلـى حلمة آخـرى، وذلك لعـدم صلاحية حليبها له! وهل يمكن أن تكون هذه الشفقة والرحمة، إلا من الرحمن ذي الرحمة المطلقة البصير العالم القدير.

هـذا ويمكـن لبعض إنـاث الكناغر الصغيـرة أن تضع في البطـن الواحـد مولوديـن أو ثلاثة مواليد، أما الأنـواع الكبيرة فتضـع مولـودًا واحدًا في كل مرة. وإذا كانـت القلّة منا تنتظر موسـمًا محددًا للتزاوج، فإن معظمنا يتزوّج في الأوقات غير المحـددة، مثلكم تمامًا أنتم البشـر. تسـتمر فتـرة الحمل عند الكناغـر الكبيرة مثلي، أربعة أو خمسـة أسـابيع، بينما يتراوح هذا الحمل عند الكناغر الصغيرة ما بين ثلاثة أو أربعة أسابيع. أمـا الـولادة عندنا فتكـون سـهلة دون آلام ثقيلـة، لأننا نضع الأجنة صغيرة قبل اكتمال نموها.

تترشـح إنـاث الكناغـر الكبيرة للأمومـة في العـام الثاني والثالـث مـن عمرهـا، وتظل تلد مـدة تتراوح مـا بين ٨-١٢ عامًـا، أما إناث نـوع الكناغر الصغيرة فتبلغ سـن الأمومة في ٤-٥ أشـهر من العمر، ويمكن أن يستمر السُّبات الجنيني في هذه الأنواع ١٠-١١ شهرًا.

آلية القفز المدهشة

أرجلنا الخلفية تشـكل الجانب الأقوى من أعضائنا، وأَذْرعتنا



قوية أيضًا إلا أنها قصيرة، كما أن الجزء العلوي من أجسامنا صغير كذلك. يتم دعم عظم الفخذ الطويل من قِبل مفصل الوَرك الضيق الطويل، ثم إننا لا نستطيع طويَ ركبتينا أثناء القفز ولا نحتاج إلى ذلك أصلاً، لأن أقدامنا الخلفية مصممة للقفز بشكل ميكانيكي... فأصابع القدمين لدينا، وعضلات المشطين والساقين والفخذين، والأوتار الرخوة المتصلة بها، تقوم بدور القوس المشدود لتؤدي إلى القفز عند تحرير الطاقة الكامنة فيها... وقد تصل القفزة الواحدة في بعض أنواعنا إلى تسعة أمتار أو إلى ١٣,٥ مترًا. كما يقوم ذيلنا بعضلاته القوية، بمساندتنا أثناء القفز والوثوب، وكذلك بتأمين توازننا عند الوقوف وكأنه قدم خامسة. أما الهدف من القفز هو التشويش على العدو والفرار منه بسرعة، بالإضافة إلى أن الذكور تستعين بذيولها عند الاقتتال ببعضها البعض. وقد خلَق سبحانه بعلمه اللامتناهي، جلدًا سميكًا جدًا حول الخصر لذكورنا (أسمك من جلد الكتف بضعفين) ليغدو درعًا يحمي بطونها من التمزق والخرق نتيجة الركلات عند العراك.

أحيانًا نمشي زحفًا وأحيانًا أخرى نقفز، نستطيع أن نجري بسرعة ٥٥ كم/س، أما نوع الكناغر الصغيرة منّا تجري بسرعة ٣٠ كم/س.

تلبية الحاجات بلا نقصان

نستخدم أَذْرعتَنا في قياس الحرارة أيضًا؛ إذا كان الجو حارًّا نبصق على أيدينا وندهَن بها الأماكن الساخنة في أجسامنا حتى نخفض حرارتها. فمن إحسان ربنا إلينا أن وَهَب كل نوع من مخلوقاته أعضاءً ومواهب تسهل له العيش وفق البيئة المحيطة بها. فالكنغر الجُرْذ يملك قدرة عظيمة على التمويه، كما تتمتع أنواع أخرى من الكناغر، بأيد طويلة قوية تمكّنها من التسلق على الأشجار والعيش فوقها، حيث تنزل هذه الأنواع من الشجرة بالاعتماد على أذيالها المنبسطة القوية التي لا تلتف ولا تلتوي، وتملك أيضًا موهبة القفز من شجرة إلى أخرى في المسافات القريبة. هذا وقد خُلقت أقدام كناغر الولب التي تعيش في المناطق الصخرية، بشكل لا تنزلق أبدًا.

لقد تم خلق القسم الأمامي لمعدتنا على شكل "غرفة تخمير" (Fermantasyon). وقد منحنا خالقنا "البكتريا التكافلية" (Simbiyont) والكائنات ذات الخلية المهدبة الواحدة في المعدة والأمعاء لتؤدي خدماتها في الهضم. حتى إنه تعالى خلق بعض أنواعنا، لتتمتع بإمساك اليوريا في البول قبل الطرح لبناء البروتينات من جديد. عن طريق الأيض الخاص لديها، وعندما يحصل انخفاض في كمية الفيتامينات لدى بعض أنواعنا، تقوم -بفضل عملية استقلاب خاص- بإمساك اليوريا في البول قبل طرحها لاستخدامها في بناء البروتينات من جديد. يا لها من صنعة بديعة لصانع بديع.

أيها الإنسان الحبيب... نحن وإياك أثرٌ من آثار خالق واحد صمد. متّع كل نوع منا ببدائعه المختلفة. إياك أن تنسى نعَم الله عليك، إذ وهبك العقل والمشاعر والوجدان والقلب وما شابهها من الآليات التي تفوّقتَ بها على سائر الكائنات... وإياك أن تنسى أنك في امتحان، إما أن تفوز بحسناتك وإما أن تخسر بسيئاتك. أما نحن فنأكل ونشرب ونمضي بحياتنا بعيدين عن همّ هذا الامتحان وما يعقبه من حساب وجزاء. فكل ذلك بتقديره وإرادته سبحانه، فلو شاء ما خلقَنا أبدًا... فنحمده على كل ما أعطانا من نعَم، ثم أتركك أيها الإنسان لأن تتأمل وتفكر لما خُلِقتَ له. ■

(*) جامعة ٩ أيلول / تركيا. الترجمة عن التركية: مصطفى حمزة.

نور الدين صواش*



تنبيهات رمضانية

لدى الدولة العثمانية

ورد في "رمضان تَنْبِهْنَامَسِي" (وثيقة تنبيهات رمضان) لدى الدولة العثمانية، أن السلطان ذاته هو مَن كان يقوم باختبار واختيار نوعية القمح الذي سيُصنع منه الخبز في شهر رمضان المبارك، وكذلك هو مَن كان يقوم بتحديد وزنه وكمية الملح التي تضاف إليه... حتى إنه كان يختار نوع الحطب الذي يتم حرقه في طهي هذا الخبز! وإذا نال هذا الخبز إعجاب السلطان وأهل الخبرة في القصر، تبدأ الأفران بخبزه وبيعه إلى الأهالي والصائمين.

وقبل حلول شهر رمضان المبارك الذي تبدأ التحضيرات له قبل خمسة عشر يومًا، يأمر السلطان بتشكيل هيئةٍ لمراقبة الأغذية في الأسواق وتنظيم أسعارها. ولعل قيام السلطان ذاته بالإشراف على أدق التفاصيل إبان هذه التحضيرات، خير دليل على اهتمامه بالرعية واعتنائه بصحتهم.

وأيضًا تم في وثيقة "تنبيهات رمضان" توجيه الأهالي إلى التمسك ببعض الضرورات والالتزام بها طيلة شهر رمضان المبارك، حيث يقوم الوعّاظ بتذكير الجماعة في المساجد، والمنادون بتنبيه الأهالي في الشوارع؛ بألا يزور أحد منزلاً دون إخبار صاحبه أو دون دعوته له... وألا يقوم أحد بتناول الأطعمة أو المشارب في الشوارع... وأن يحرص الناس على الصلوات الخمس بجماعة في المساجد... وأن يبذلوا كل ما بوسعهم لنيل بركات هذا الشهر المبارك وفضائله... ثم يُطلب من الأهالي أن يدعوا إلى الدولة العثمانية بالخير والفلاح، وإلى الأمة الإسلامية بالفوز والنجاح.

ولابد من التذكير هنا، بأن الدولة العثمانية قامت بتقديم مكافآت كبيرة لأول مَن يرى هلال شهر رمضان المبارك ويخبر اللجنة العليا بذلك. ■





النحل
خبير التكييف

كلنا يعرف أن إناث النحل تصنع العسل، وتقدّمه دواءً شافيًا لبني البشر... ولكن مَن منا يعرف أن النحل تستخدم المكيّف عند شدة الحرّ، والمدفأة عند شدة البرد!!

أجل، يسير النحل في بيوته على الطريقة التي سار عليها الإنسان في التكييف والتبريد في بيته أو دكانه أو محل عمله! وكأني أسمعك تسأل بفضول: وكيف ذلك؟! حسنًا هلمّ نرى...

يقوم جمع غفير من عاملات النحل عند الفجر البارد أو عند هبوط درجة الحرارة، بالتجمع حول الخلايا وتغطيها بكثافة -كأنها تحتضنها- لتحمي البيض وتزوده بأجسامها الصغيرة الناعمة بالحرارة اللازمة!

وأما الأمر الآخر الذي يثير العقول ويأخذ بالألباب، هو الطريقة التي تتبعها هذه المخلوقات في التبريد عند ارتفاع حرارة الجو... ففي هذه الحالة تقوم بعض عاملات النحل بتحريك أجنحتها للتهوية، فيتشّكل إثرها تيارًا هوائيًّا يتم من خلاله دفع الهواء البارد إلى داخل الخلية! أما إذا كان الحر شديدًا، فتقوم بعض هذه العاملات بتحريك أجنحتها بسرعة فائقة، وبعضها الآخر برش الماء على عيون الخلية لتلطيف جوها وإعادة درجة حرارتها إلى الحالة الطبيعية التي كانت عليها؛ وهي ٣٢ درجة ثابتة لا تتغير ولا تتبدل، لا في الحر ولا في البرد!

من أين تعلّمت هذه المخلوقات كل هذه الأمور يا ترى؟! ألا يعني هذا، أن نظام التكييف والتدفئة تم استخدامه من قبل ملايين السنين؟! ■

(*) كاتب وباحث تركي.



مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل شهرين عن:
Işık Yayıncılık Ticaret A.Ş
İstanbul / Türkiye

صاحب الامتياز
مصطفى طلعت قاطيرجي أوغلو

المشرف العام
نوزاد صواش
nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير
هانئ رسلان
hraslan@hiramagazine.com

مدير التحرير
أجير إشيوك
eisiyok@hiramagazine.com

المخرج الفني
أنكين جفتجي

المركز الرئيس
HIRA MAGAZINE
Kısıklı Mah. Meltem Sok.
No:5 34676 Üsküdar
İstanbul / Turkey
Phone: +902163186011
Fax: +902164224140
hira@hiramagazine.com

مركز التوزيع
٧ ش البرامكة – الحي السابع – م.نصر/القاهرة
تليفون وفاكس: +20222631551
الهاتف الجوال : +20100780831
جمهورية مصر العربية

نوع النشر
مجلة دورية دولية

Yayın Türü
Yaygın Süreli

الطباعة
Çağlayan Matbaası
İzmir - Turkiye
Tel:+90 (232) 252 20 96

رقم الإيداع
١٨٧٩-١٣٠٦

للاشتراك من كل أنحاء العالم
pr@hiramagazine.com



التصور العام

- حراء مجلة علمية فكرية ثقافية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبِّر عن آراء كُتَّابها، ولا تعبِّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلًا أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

USA
Tughra Books
345 Clifton Ave., Clifton,
NJ, 07011, USA
Phone:+1 732 868 0210
Fax:+1 732 868 0211

SAUDI ARABIA
الوطنية للتوزيع
Phone: +966 1 4871414
المكتب الرئيسي: شارع التخصصي مع تقاطع شارع
الأمير سلطان بن عبد العزيز عمارة فيصل السيار
ص.ب: 68761 الرياض: 11537
الجوال: 00966504358213
saudia@hiramagazine.com
abdallahi7@hotmail.com
Phone-Fax: +966 1 2815226

MOROCCO
الدار البيضاء ٧٠ زنقة سجلماسة
Société Arabo-Africaine de Distribution,
d'Edition et de Presse (Sapress)
70, rue de Sijilmassa, 20300 Casablanca / Morocco
Phone: +212 22 24 92 00

SYRIA
GSM: +963 955 411 990

YEMEN
دار النشر للجامعات
الجمهورية اليمنية، صنعاء، الخط الدائري الغربي،
أمام الجامعة القديمة
Phone: +967 1 440144
GSM: +967 711518611

ALGERIA
Bois des Cars 1 Villa N°68 Dely Brahim
GSM: +213 770 26 00 27

SUDAN
مركز دار النيل، مكتب الخرطوم
أركويت مربع 48 منزل رقم 31 – الخرطوم – السودان
Phone: 0024 999 559 92 26 - 0024 915 522 24 69
hirasudan@hotmail.com

JORDAN
شركة زوزك/شميساني شارع عبد الحميد شرف، بناية رقم:61
عمان/الأردن.
Phone: +962 656 064 44
GSM: +962 775 935 756
hirajordan@hotmail.com

UNITED ARAB EMIRATES
دار الفقيه للنشر والتوزيع
ص.ب. 6677 أبو ظبي
Phone: +971 266 789920

MAURITANIA
Phone: +2223014264

• المملكة العربية السعودية: ١٢ ريال سعودي • اليمن: ٣٥٠ ريال يمني • المغرب: ٢٠ درهم • الجزائر: ٢٥٠ دينار



الطفلة والدعاء

إنه ما ردّ خاوي اليدين أحدا
وما قال لأمثالك "لا" أبدا
إنه تكرّم على من شاء بما شاء
وأسعد كل قلب خفق إخلاصًا وصفاء

* * *

تركيا: ٦ ليرات • أوروبا: ٣,٥ يورو • أمريكا: ٥ دولار

ISSN 1306-1879
www.hiramagazine.com
Eylül - Ekim 2012 Sayı: 32 Fiyat: 6 TL.